

الدكتور حسن ظاظا

دار القلم
دمشق

دارة العلوم
بيروت

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

دار العلوم
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - ص . ب : ١١٣/٦٥٠١



مقدّمة

في هذا الكتاب (أبحاث في الفكر اليهودي) جمعت ثلاث مقالات ينتظمها حرص على معرفةٍ أعمق لأمّة ظهر بوضوح عداؤها للعرب والمسلمين، ومحاولتها تصديع كيانهم وتقويضه بكافّة الوسائل؛ من الدسّ والتشويه والتلويث، إلى الدِّعاية التخريبيّة ضدّهم في جميع أنحاء العالم، إلى التعاون مع كل عدوّ لهم طامع فيهم، إلى تزيين الخيانة لبعض ضعاف النُّفوس منهم، إلى ضربهم في ميادين المال والأعمال، وأخيراً إلى اغتصاب أرضهم، وإجلاء سكّانها منها، وسفك دمائهم بقوّة السلاح.

كل هذا تنطق به ظواهر تاريخيّة محدَّدة، منذ القِدم وحتّى الأزمان المعاصرة التي شهدت جرائم الصهيونيّة، يرتكبها قادتها كل يوم، وعلى مرأى ومسمع من العالم الذي يزعم أنّه متحضّر، دون أن تجد ضحايا هذا التشكيل العنصريّ الرهيب أيّة وقفة جدّية في سبيل الحقّ والعدل في دنيا الأنانية والقماءة والجشع التي نعيش فيها.

* * *

وإحدى هذه المقالات: «القدس، مدينة الله أم مدينة داود؟!» وفيها أرسم الخطوط العريضة لتاريخ المدينة الفلسطينيّة العريقة قبل اليهود، بتخطيطها، ووصف إقليمي لها، ثمّ ما كان من قيام حكم داود وسليمان عليهما السلام في طرفها الشمالي الغربي، بعيداً عن حوزة المسجد الأقصى

وقُبّة الصخرة وكنيسة القيامة، وما يتبع ذلك من آثار عمرانيّة موغلة في القِدَم، مستقلّة تمام الاستقلال عن الأشياء الطارئة على المدينة مع اليهود القدماء إلى أن دالت دولتهم.

والعنوان كما يرى القارىء يتضمّن سؤالاً عن القدس، أهي مدينة الله أم مدينة داود؟! والذي يبرِّر هذا العنوان هو أنّ اليهود درجوا على تسميتها «مدينة داود» حتى في نشيدهم الصهيوني، بينما يتّضح من سيرة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام أنّها كانت «مدينة الله» عندما حلَّ بها ضيفاً على أميرها «ملكي صادق» كاهن الله العليّ، وهو حاكم فلسطيني صالح كان إبراهيم - حسب ما جاء في التوراة الموجودة بين أيدي اليهود الآن - يصلّي معه، ويلتمس بركته. كل هذا قبل داود بما يقارب ألف سنة.

وقد لقي هذا البحث تقديراً من الذين اطّلعوا عليه في جميع أنحاء العالم، عندما نشرته جامعة الإسكندريّة للمرّة الأولى في كتيّب مستقلّ، ثمّ أعاد نشره مجمع البحوث الإسلاميّة بالأزهر، ونفدت الطبعتان وما يزال البحث عن نسخ المقالة ملحّاً، ممّا برّر إعادة طبعها الآن.

* * *

وأرفقت به في هذا الكتاب بحثاً آخر على أكبر جانب من الأهميّة، كتبه العلّامة اليهودي الكبير م. ص. سيجال «حول تاريخ الأنبياء عند بني إسرائيل». وقد قام سيجال بإعداده باللّغة العبرية الحديثة، وأهداه إلى السياسي الصهيوني «هيرتس» الحاخام الأكبر لبريطانيا وما وراء البِحار، بمناسبة بلوغه السبعين من عمره. وتأتي منزلة هذا الحاخام البريطاني في قومه من أنّه كان له أدقّ الأدوار في تأمين الاتصال بين اللورد روتشيلد زعيم الطائفة اليهوديّة في بريطانيا في النصف الأوّل من هذا القرن العشرين، وحاييم وايزمان زعيم الصهيونيّة العالميّة بعد هرتسل، وبين الحكومة البريطانية. وبجهود الحاخام هيرتس حصلت الصهيونية على «إعلان بلفور» الذي كان الخطوة الحاسمة نحو اقتطاع فلسطين من جسم الوطن العربي.

والأستاذ سيجال وهو يكتب هذا البحث الطريف النادر باللّغة العبرية، كان يعلم أن توجهه بالخطاب إلى حاخام، فلم يكن يعبأ بذكر مواضع أسانيده في الكتب اليهوديّة، وكان كثيراً ما يشير إلى نصّ طويل بإشارة خاطفة، اطمئناناً إلى أن القارىء اليهودي يعرف القصّة كلّها. وقد عنيتُ بذكر مواضع النُّصوص في كتب التراث اليهودي، كما ترجمت تفاصيل ما أجمله كاتب البحث حرصاً على فائدة القارىء العربي.

وقد ظهرت هذه المقالة بحواشيها على شكل كتاب نشرته جامعة بيروت العربية، ثمّ نفدت طبعته، وكثر البحث عنه من قِبَل الدّارسين لليهود فكراً وتاريخاً، لأنّه على إيجازه يشرح بجلاء فكرة القوم عن النبوّة، بما لا يدع مجالاً للشكّ في أنّها تختلف عن فكرة المسلمين اختلافاً تامّاً، على حين يشعر الدّارس بأنّ المسيحية تقف بين بين. وقد حرصت على أن تكون الترجمة صورة دقيقة وأمينة لما أراد المؤلّف أن يعبِّر عنه بلغته العبرية. أي أنني آثرت عدم التَّصدّي له فيما يخالفنا فيه من آراء حول الأنبياء عليهم السلام.

* * *

وأمّا بحث «العنصرية اليهودية» فإنّه ينشر هنا لأوّل مرّة. وكنت قد أعددته للندوة العالمية ضدّ الصهيونيّة والعنصرية التي دعت إليها نقابة المحامين الليبيّين، وانعقدت في طرابلس في صيف عام ١٩٧٥، ثمّ غيَّرت البحث، وقدَّمت آخر عن انتهاك حقوق الإنسان في الأرض الفلسطينيّة المحتلّة، عندما اجتاحت القوّة العسكرية الصهيونيّة مدينة غزّة وأمعنت في أهلها وعمائرها قتلاً ونسفاً، واعتقالاً ومضايقة وإذلالاً. وبعد أن أعدتُ النّظر في هذا البحث، بدا لي أنّ نشره اليوم فيه مساعدة على إدراك الأبعاد السحيقة للطغيان الصهيوني، حتّى لا نقع في خديعة أخرى للقوم بعد أن شبعوا فينا مكراً وخداعاً.

* * *

وأريد أن أختم هذه السطور بأنّني لا أرى السلام مع اليهود مستحيلاً،

ولكنّني لا أرى له مع الصهيونيّة طريقاً واضحة، إلاّ أن يغيّر القوم من أنفسهم وأخلاقهم وتخطيطهم الجهنّمي الخبيث، وما أظن هناك أملاً في ذلك في المستقبل القريب، هداهم الله وإيّانا، وأغلظ للجاني منهم الجزاء والعقاب.

الدكتور حسن ظاظا

الرياض ٢٤/ رمضان/ ١٤٠٦ هـ

١/ حزيران/ ١٩٨٦ م

المقالة الأولى

القدس

مدينة الله .. أم مدينة داود ؟

من الحاضر إلى الماضي

لإسرائيل أسلوب لا يعوزه الدهاء في السياسة التي تنتهجها في مشكلة الشرق الأوسط، وهو أسلوب تحاول به أن يطول بقاؤها بفلسطين، في عالم يتميَّز بأنّ عمر الاستعمار فيه قصير، وحياته في البلاد التي يتشبّث بها رهيبة مُرَّة لا راحة فيها ولا اطمئنان.

وأسلوبها هذا مبنيّ على «التعقيد»، والانحراف بالمسائل عن الطريق الواضحة المستقيمة بإثارة مشاكل جانبيَّة مفاجئة، من الأفضل لدى قادة الصهيونية ألّا ترتبط بفن تنسيق العلاقات الدوليّة، والدخول إليها من أبوابها الواسعة، بقدر ما ترتبط بغيبيّات مظلمة، وأساطير متنكّرة في ثياب التاريخ، و «ميتافيزيقيّات» غير إنسانيّة، إنْ لم تنجح في خداع العالم بصورة نهائيّة فإنّها، على الأقل، تجرّه في دوّامتها السحرية مدّة من الزمن تطول أو تقصر بحسب الظروف.

وإسرائيل تخترع هذه «العقد» وتفتعلها بتوقيت دقيق بحيث تتراكم وتتراكب حتّى تصبح ملفات «مشكلة الشرق الأوسط» في مكاتب هيئة الأمم المتحدة، وأرشيفات وزارات الخارجيّة في العالم، أشبه بمجلّدات التلمود، التي لا تدعك تنفذ من اعتراض إلّا لتقع في إشكال، أو تنزلق في شبهة، أو تنساق إلى نقاش كلاميّ طويل، ينتهي بأن تصرخ متسائلاً وقد كادت أعصابك تنهار: والآن.. أين القول الفصل؟.. أين الحلال والحرام؟ وهيهات أن تجد جواباً!.

وليس أشدّ إزعاجاً لكهنة السياسة الإسرائيليّة في قديم الزمان وحديثه من «القول الفصل»، ومن الحلِّ العادل المنطقي الإنسانيّ المباشر، وكلّما ظهر في طريقها من يكشف لولبيِّتها وتعقيدها هذا للبسيط من الأمور، مما لا يدع لها مجالاً للمغالطة والتهريج، لجأت معه إلى الجريمة.. إلى القتل: هكذا كان موقفهم قديماً من نبيِّهم أرمياء، ومن يوحنّا المعمدان، ومن عيسى المسيـح، وهكذا إلى أن نصـل حديثـاً إلى اغتيال اللورد مـوين وزيـر المستعمرات البريطاني أثناء الحرب العالميّة الثانيـة، والكونت بـرنادوت السكرتير العام لهيئة الأمم المتحدة، وما لا يحصى غيرهم من ضحايـا الظلاميّات الإسرائيليّة المطبقة.

وهناك «عقدة» ظلّ الإسرائيليّون يدخرونها للوقت الذي يصل بهم الحرج في ميدان السياسة الدولية إلى ذروته، وهي القدس. فمنـذ بدأ المشروع الصهيوني المعاصر نشاطه في أواخر القرن الماضي، والقائمون عليه يحتاطون جداً في لمس هذه العقدة، حتى اضطروا طوال مدّة مديدة إلى أن يتزوّدوا لها بوجهين يقولان كلامين مختلفين بحسب المستمعين.

الوجه الأوّل: هو الوجه اليهودي القحّ الذي يتكلّم إلى اليهود الأقحاح فلا يترك قسماً غليظاً، ولا قولاً معسولاً في الاستيلاء على القدس و «تطهيرها» من الإسلام والمسيحيّة إلّا قاله، ولا يكاد ينعقد اجتماع صهيوني كبير أو صغير، من اللقاء العابر المرتجل في بعض الأعياد أو المناسبات، إلى المؤتمرات الصهيونيّة العالمية، حتى يطلق اسم «أورشليم» مرّات ومرات، وسط الحماس المتهوّس الذي لا يعرف له رأساً من رجلين.. وأبسط ذلك وأقربه منالاً هو الترنّم بنصّ من المزامير (مزمور ١٣٧/٥ ـ ٦) يقول: «إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أرفع أورشليم على قمّة ابتهاجي»، ويقال إنّ تيودور هرتسل ـ زعيم الصهيونيّة الحديثة ـ كان قد وافق على اقتراح السياسي البريطاني «تشمبرلين» الكبير في إعطاء اليهود وطناً قومياً في أوغنده بوسط إفريقيا، ولكن غلاة

الصهيونيّة ثاروا على زعيمهم، واعتدوا على مساعده «ماكس نورداو» بالرصاص، واتّهموا «هرتسل» نفسه بالخيانة، وعند اجتماع المؤتمر الصهيوني العالمي السادس بدأوا يهتفون ضدّه من القاعة حتى إذا ما بدأ ينشد «إن نسيتك يا أورشليم».. نسوا هم كل شيء، وصفا له الجو، وسلّمت له الزعامة، بعد أن سلّمت لهذه الهستيرية «مدينة داود».

وأمّا الوجه الثاني: فتلتفت به الصهيونيّة إلى الأمم الأخرى، تلتفت لتقول لهم كلاماً معسولاً أيضاً عن «المدينة المتحف»، «المدينة المقدَّسة» لكل الملل والأديان، «مدينة الله». وكانت إسرائيل بهذا الوجه تستجدي رِضا الرأي العام المسيحي في أوروبا وأمريكا، وتخدِّر الرأي العام الإسلامي في إفريقيا وآسيا، وتتهرّب من نقمة العلمانيّة واللاعنصرية في العالم أجمع.

وهكذا جعلوا عاصمتهم أولاً «تل أبيب» لا «القدس» وقنعوا من إرضاء بسطاء اليهود في العالم ببناء «أورشليم جديدة» على أطراف المدينة التاريخية تتكون من بضعة أحياء إلى الغرب والشمال أشهرها «رحبيا» و «محنى يهودا» و «كرم أبراهام» ثمّ أضافوا إليها أحياء عربية اغتصبوها بالإرهاب مثل «البقعة» و «القطمون» و «بيت صفافا» وغيرها. وجعلوا في حكومتهم وزارة خاصّة اسمها «وزارة الشؤون الدينية»، ورضوا بأن تبقى المدينة القديمة «القدس الشريف» بالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة وغيرهما من المعالم والمشاهد المسيحيّة والإسلامية المقدّسة جزءاً من المملكة الأردنيّة يفصله عن إسرائيل سُور معترف به كحدود دوليّة من هيئة الأمم المتحدة.

ثمّ خطت الصهيونيّة خطوتها الجريئة في حرب يونيه ١٩٦٧ فأزالت هذا السُور واحتلّت القدس التاريخية ضمن ما احتلت ـ وما تزال ـ من الأراضي العربية داخل حدود الأردن وسوريا ومصر، وتسرّعت فأعلنت «توحيد القدس» أي ضم القدس الشرقية ـ وهي المدينة العربية التاريخية ـ إلى «أورشليم الجديدة»، وإدخالها في مخطط «تهويد» معلوم مرسوم.

ولكي يبتلع العالم كلّ هذه المغالطات دون صياح كثير، قسم قادة الصهيونيّة أنفسهم إلى «جوقات» كل منها يتّجه بصوته جهة خاصة يُلقي فيها بالبيانات والتصريحات المناسبة: «بن جوريون» و«موشي ديان» وبقيّة «الكورس القومي» يعلنون أنه لا إسرائيل بدون القدس التاريخية، «مدينة داود»، وأنّ الحائط الدولي بين القدس القديمة شرقاً والجديدة غرباً كان وصمة في جبين الشعب اليهودي، وأنّ المدينة كلّها يهوديّة مائة في المائة بماضيها ولا بد أن تصير كذلك في مستقبلها. وفي نفس الوقت يقف في الجهة الأخرى «الكورس الدبلوماسي» بقيادة «أبا إيبان» و«يجال آلون» ليؤكد أنّ القدس «مدينة الله» وأنّ المعالم المقدّسة فيها لها حصانة سماوية لا يمكن المساس بها، وأنّ المدينة المقدّسة مفتوحة على مصراعيها للنّاس جميعاً من كل الملل والنحل وأنّها ستظل كذلك.

وتترسّب في الرأي العام العالمي، في العقل الباطن للنّاس، انطباعات هي وحدها التي أرادها اليهود، أنّهم أصحاب الحق الشرعي والتاريخي الأول في هذه المدينة، وأنّهم لا يتكلّمون من مركز القوّة فحسب، بعد نكسة يونيه ١٩٦٧، بل من سجلّات التاريخ أيضاً، وكاد العالم أن يبتلع ما شاءت الصهيونية بدون صياح كثير.

ثم تشتدّ المقاومة الفلسطينية في كل مكان، وتصمد الأمّة العربية الواقفة على خط المواجهة، ويطول صمودها بما يخيب ظنّ إسرائيل، بل إنّها لا تكتفي بالدفاع المتكافىء عن مواقعها فتلقن القوات الإسرائيلية الضاربة، كلّما حدث اشتباك، درساً في ضرورة التروِّي والتفكير الطويل قبل الدخول في اشتباكات أخرى، وتخرج من جزع الهزيمة ومرارة الدفاع المستميت إلى إمكانيّات التخطيط للمستقبل، ويبدأ ذلك بتنسيق كامل بين الجبهات الثلاث، ثم بينها وبين قيادة الكفاح الفلسطيني المسلَّح، على نحو يجعل الغلاة من قادة الصهيونيّة قلقين على المستقبل جداً. فالانتصار السهل في معركة محلّية خاطفة، قد حلّ محلّه خطر الحرب الشاملة إذا هم أصرُّوا

على طلباتهم. والوقوف خلف المدافع عند خطوط وقف إطلاق النّار سنين طويلة سيهزّ الصورة الرائعة التي رسمتها الدعاية الصهيونيّة للجيش الإسرائيلي الذي لا يغلب، بين جماهير اليهود الطيِّبين البسطاء في العالم، الذين يعيشون على رومانسيّة عسكرية حالمة تستمد عناصرها من قصة داود وتغلّبه على العملاق جالوت، هذا فضلاً عن أنّ وقوف السنين الطوال خلف المدافع سيحدُّ أيضاً من الإنتاج، وسيصيب بالعقم والجرب مواسم الحجّ والسياحة، وسيتطلب المليارات ثمناً لهذا التّرف الذي تتحاشاه أكبر الأمم وأغناها، وسيترك لحلفاء إسرائيل والواقفين وراءها فرصة طويلة للتأمّل والتفكير الهادىء في المصالح الحقيقة والدائمة لشعوبهم، ستنتهي غالباً بانفضاضهم عنها كلياً أو جزئيّاً. وقد بدأ ذلك فعلاً بتخلّي فرنسا عن تبنّيها للصهيونيّة، وأعقب ذلك انكماشاً من جانب إنجلترا وإيطاليا وتركيا والأرجنتين وغيرها من دول العالم في موقفها من الصهيونيّة.

في وسط هذا الدخان الكثيف، يشب حريق المسجد الأقصى، ولأمر ما تحرص إسرائيل على أن تعلن منذ بداية التحقيق أن المسؤول عن هذه الجريمة «مايكل روهين» ليس يهودياً ولا إسرائيلياً بل شاب أُسترالي من أتباع طائفة مسيحيّة متطرِّفة، ولكن العالم لا يبتلع ذلك بسهولة، ويبدأ القلق، لا بين المسلمين وحدهم ولكن بين جماهير العالم المسيحي أيضاً. وتذهب إسرائيل في الاعتذار عن أقلّ ما يمكن اتهامها به وهو الإهمال في القيام بمسؤوليّاتها عن أمن الأماكن المقدّسة وسلامتها كل مذهب. ولكن حججها تبدو واهية هزيلة لا تفلح في إزالة القلق الشديد من نفوس غير اليهود في الشرق والغرب. ويقوم وزير خارجيّتها «أبا إيبان» بجولاته التقليدية، لا يألو فيها جهداً، حتّى يصل إلى الفاتيكان وإلى لقاء البابا بولس السادس نفسه، ولكن المقابلة «التاريخية» لا تأتي إلاّ بنتائج «سلبية». وتعلن رئيسة الوزراء «جولدا ماير» عن عزم الحكومة الإسرائيلية على ترميم المسجد الأقصى على نفقتها ـ كمجرّد عملية تخريب، ناجحة بكل أسف، لمؤتمر القمة الإسلامي.

كل هذا «والعقل الباطن» للعالم كله ما يزال ينقع في تاريخ فولكلوري مؤدّاه كما قلنا أنّ القدس «مدينة داود»، وأنّ ما يحدث فيها الآن ـ على بشاعته ـ هو صراع بين «ظواهر» طارئة وبين تاريخ قديم يريد أن يعيد نفسه. فلنعد إذن إلى التاريخ ولنتركه يقول ما عنده باختصار.

أورشليم (القدس) قبل العبريين

أقدم النّقوش التي ورد فيها ذكر هذه المدينة موجود عندنا في المتحف المصري بالقاهرة، في مجموعة اللّوحات المكتوبة بالخط المسماري واللّغة البابلية «لغة العراق القديم» تتخلّلها شروح باللّغة الكنعانيّة «لغة فلسطين القديمة». وهذه النُّقوش تسمّى «لوحات تل العمارنة» وقد عُثر عليها في أوائل القرن العشرين في هذه المنطقة مـن محافظـة أسيوط، وهي وثائق دبلوماسيّة ترجع إلى عهد الفرعون أمنوفيس الثالث (من ١٤١١ إلى ١٣٧٥ قبل الميلاد) وابنه أخناتون (١٣٧٥ ـ ١٣٥٠ ق. م).

تسمّى أورشليم (القدس) في هذه النقوش «أورشليم». ففي رسالة كتبها «عبد يحيبا» إلى أمينوفيس الثالث نجد أنّ الأول هو حاكم القدس «أوروسالم» من قبل فرعون، وأنه يستنجده بمدد عسكري لصد غارات شراذم من الغجر الرحّل اسمهم «حبيرو» اتّفق الباحثون على أنّهم «العبريُّون» كما ذكر ذلك الأثري «بندلبوري» الذي أشرف زمناً طويلاً على الحفائر في هذه المنطقة وألّف فيها كتابه المشهور «حفائر تل العمارنة». ويقول المؤلِّف نفسه: إنّ معبد «آتون» في تل العمارنة بخطته المعمارية المتميِّزة، وبالخلفية الدينية التي جعلته قبلة للنّاس كافّة هو الذي ألهم بناة المعابد في بلاد النوبة والآسيويين في أورشليم فكرة «المعبد المركزي» أو «المعبد القبلة» الذي يتّجه إليه النّاس جميعاً في صلاتهم ويأتون إليه في حجِّهم.

تجد اسم أورشليم بعد هذا التاريخ يتكرّر في لغات أُخرى، ففي نقوش الامبراطور الآشوري سنحاريب (حول ٧٠٠ ق. م) يرد اسمها هكذا

«أوروسليمو» وفي العبرية «يروشالايم»، وفي النُّقوش اليونانيّة من عهد الإسكندر الأكبر (حوالى ٣٣٠ ق. م) وردت بلفظ «هيروسوليما» أو «سوليما» باختصار، وانتشر اسمها من الكتاب المقدّس في جميع لغات العالم تقريباً.

أمّا اسم «القدس» فلا بدّ أنّه رافق المدينة منذ بداية تاريخها، أي منذ ما قبل العبريين عندما أُقيمت فيها لأوّل مرّة أماكن مقدّسة خاصّة ببعض العبادات القديمة، وعلى أيّة حال فإنّ المؤرخ اليوناني هيرودوت (٤٨٤ - ٤٢٥ ق. م) لم يذكر في تاريخه المشهور اسم أورشليم ولكنه ذكر مدينة كبيرة في الجزء «الفلسطيني» من الشام وسمّاها «قديتس» مرّتين في الجزء الثاني والثالث من تاريخه. ويقول المستشرق اليهودي الفرنسي «سالومون مونك» في كتابه «فلسطين»: إنّ هذا الاسم على الأرجح هو «القدس» محرّفاً في اليونانية عن النطق الأرامي «قديشتا». وحتى اليهود في الكتاب المقدّس قد أطلقوا عليها أحياناً اسم «مدينة القدس» (أشعيا ٤٨/ ٢، نحميا ١١/ ١)، و«جبل القدس» (أشعيا ٢٧/ ١٣)، كما سمِّيت «مدينة الله» (المزامير ٤٨/ ١)، و«مدينة الحق» (زكريا ٨/ ٣).

واسم «أورشليم» ليس عبريّاً أصيلاً، فقد كانت تحمل هذا الاسم قبل دخول العبريين إليها بشهادة نصّ تل العمارنة، وبدليل أن اليهود وجدوا صعوبة في كتابة اسمها باللّغة العبرية «يروشالايم» فهذه الياء الواقعة قبل الميم الأخيرة لم تكن تثبت في الكتابة العبرية. وقد كتبت بدونها في أسفار العهد القديم ٦٥٦ مرّة وكتبت بها ست مرّات فقط، ولذلك نصّ علماء التلمود على وجوب كتابتها بلاياء (التوسفتا، كتاب الصوم «تعنيت» ١٦/ ٥).

أمّا معنى «أورشليم» فمختلف فيه أيضاً، وأرجح الآراء من الناحية العلمية أنّها مركّبة من «أور» بمعنى موضع أو مدينة و«شالم» وهو اسم إله وثني لسكان فلسطين الأصليّين هو «إله السلامة» أو «إله السلام» - يا لسخرية التاريخ! فالمدينة إذن كانت مكرّسة لإله السلام حتى وصل العبريون. وهناك من يقول: إنّ كلمة «أور» معناها الميراث، فيكون «أورشليم» بمعنى

ميراث السلام. أمّا أحبار اليهود فيدعون أنّ سام بن نوح قد سمّاها «شلم» أي السلام، وأنّ إبراهيم الخليل قد سمّاها «يرأه» وهي بمعنى الخوف باللّغة العبرية فقرّر الله أن يسمِّيها بالاسمين جميعاً «يرأه - شلم» أيْ «أورشليم» بمعنى الخوف والسلام (المدراش - الشرح الكبير على سفر التكوين «بريشيت ربا» - ٥٧). وبنوا على هذه التخريجات الفولكلوريّة عقائديّات رهيبة حول السلام المتولّد عن الرعب. وقيل أيضاً: إنّ «يرو» يمكن أن تكون في اللّغات السامية بمعنى «إله» ويكون اسم المدينة بكل بساطة «إله السلام».

ولو توفّرت الأدلّة على أنّ سام بن نوح هو الذي سمّى المدينة باسمها لوافقنا أحبار اليهود على أنّ المدينة نفسها ترجع إلى عهد سيِّدنا نوح، ولكن لم يقل أحد غيرهم بذلك، حتى التوراة نفسها، فإنّها تتحدّث عن «أورشليم» لأوّل مرّة في زمن إبراهيم (حوالى سنة ١٩٠٠ ق. م) وكان اسمها «شاليم» فقط، وكان ملكها من سكان فلسطين الأصليِّين، ويبدو من السياق أنّه كان يحكم دينياً، تقول التوراة (سفر التكوين ١٤/١٨): «وملكيصدق ملك شاليم أخرج خبزاً ونبيذاً، وكان كاهناً للّه العليّ، وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العليّ مالك السماوات والأرض». فأورشليم (القدس) كانت مدينة مباركة للّه العليّ من قبل داود بل من قبل إبراهيم أيضاً.

وعلى عهد يوشع بن نون خليفة موسى (حوالى ١٤٥٠ ق. م) كان العبريُّون قد أصبحوا بعشائرهم التي تهدّد أمن المدن الفلسطينيّة خطراً يحسب حسابه، ويؤكد ذلك نصّ تل العمارنة الذي أشرنا إليه. لذلك نجد تحالفاً يعقد بين أمراء الفلسطينيين على أثر انتصار يوشع بن نون في أريحا وعاي وجبعون، (يوشع ١٠/٣ - ٤) «فأرسل أدونيصدق ملك أورشليم إلى هوهام ملك حبرون - الخليل - وفرآم ملك يرموت، ويافع ملك لكيش، ودبير ملك عجلون». ولكن يوشع بن نون ينشر الرهبة في كل فلسطين فتخضع له بعض البلاد ويحاربه البعض الآخر، ويصالحه فريق من «الخائفين» على امتيازات معيّنة يتنازلون عنها للعبريين.

وكانت «أورشليم» من المدن الفلسطينية التي قاومت الغزو قروناً طويلة. فمثلاً نجد يوشع بن نون نفسه يجعلها في نصيب قبيلتي بنيامين ويهوذا من أسباط بني إسرائيل، ولكنّهما لم يستطيعا ـ ولمدة طويلة جداً ـ طرد سكّانها الأصليِّين «اليبوسيين» إحدى القبائل الفلسطينية القديمة، (يوشع ١٥/٦٣): «وأمّا اليبوسيون السّاكنون في أورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في أورشليم إلى هذا اليوم». والمقصود اليومُ الذي يروي فيه الراوية هذه الوقائع عن يوشع وبعد وفاته بمدّة علمها عند الله. وبعد موت يوشع بن نون أعاد سبط يهوذا الكرة على أورشليم، «وحارب بنو يهوذا أورشليم وأخذوها وضربوها بحدّ السيف وأشعلوا المدينة بالنّار» (سفر القضاة ١/٨). أمّا سبط بنيامين فإنَّهم فشلوا كذلك في طرد اليبوسيين وسكنوا معهم «إلى هذا اليوم» (قضاة ١/٢١).

لذلك بقيت أورشليم تسمّى «يبوس» أو «مدينة اليبوسيين» كما جاء في سفر القضاة (١٩)، وفي هذا الموضع نجد نصاً يستحق الانتباه، حين يقول في سياق القصة التي يرويها: «.. وفيما هم عند يبوس، وقد انحدر النهار جداً، قال الغلام لسيِّده: تعال نميل إلى مدينة اليبوسيين هذه ونبيت فيها. فقال له سيِّده: لا نميل إلى مدينة غريبة حيث لا أحد من بني إسرائيل هنا».

وسنرى أنّ المدينة المقدّسة ظلّت إلى عهد داود لليبوسيين، سكّانها الأصليّين من شعب فلسطين. ومعروف أنّ داود عاش حوالي سنة ألف قبل الميلاد، وبالتالي ظلّت مدينة «السلام» من أوّل ما لقيناها في التوراة على أيام إبراهيم إلى تلك الفترة ـ نحو ألف سنة ـ تقاوم التسلّل العبري؛ والمطامع اليهودية فلا ينال الإسرائيليون منها إلّا بالتخريب والإحراق حيناً أو بالمساكنة والتعايش السلمي أحياناً.

ومع داود فقط تبدأ «عقدة أورشليم» مدينة الله ومدينة السلام ومدينة اليبوسيين الفلسطينيين منذ... منذ ما قبل التاريخ، كما أثبتت ذلك أحدث الحفائر التي أجريت في المنطقة. ومن المستحسن قبل أن نخطو الخطوات

الأولى نحو «أورشليم اليهود» أن نتصوّر بما يمكن من إيجاز ووضوح طبيعة إقليم القدس وموقعها.

تقع القدس على خط عرض ٣١°٤٦′٤٥″ شمال خط الاستواء، وعلى خط طول ٣٥°١٣′ ٢٥″ شرق جرينتش، وهي هضبة غير مستوية تماماً يتراوح ارتفاعها بين ٢١٣٠ و ٢٤٦٩ قدماً. وجوّها قارّي صحراويّ إلى حد كبير، فالحرارة فيها قد تتجاوز ٣٠° صيفاً وقد تنزل إلى خمس درجات تحت الصفر شتاء، كما أنّ التفاوت في الحرارة كبير بين النهار والليل، ومطرها شتوي متوسِّط، ورطوبتها متوسِّطة أيضاً، ويندر بها الثلج، وليس بها أنهار، وإنَّما تحيط بها عيون كثيرة تتفاوت في غزارة الماء وصلاحيته للشرب، وتندفع من بعض هذه العيون جداول مؤقتة بهطول الأمطار. وكانت المدينة إلى عهد ليس بالبعيد تعتمد أساساً على تجميع مياه الأمطار في صهاريج وآبار أعدّت لهذا الغرض، وأعلى مرتفعاتها يوجد على حافاتها الشرقية والجنوبية الغربية والشمالية، ولذلك اعتبرت منذ القدم موقعاً استراتيجياً قويّاً جداً، واشتهرت بأنّها لا تظهر عند الزحف عليها من بعد، بينما تستطيع حاميتها أن تكشف تحرّكات المهاجمين لها وهم ما يزالون على مسافة طويلة.

وأهم جبالها هي:

١ ـ جبل الزيتون:

وهو المواجه لأسوار الحرم من الجهة الشرقية، يفصله عنه وادٍ عميق سريع الانحدار هو «وادي قدرون» وامتدادهما من الجنوب إلى الشمال. وهو من الوجهة التاريخية من أهم الجبال المحيطة بالقدس، والتلمود يسمِّيه «جبل المسح» أي جبل التتويج، لأنَّهم يأخذون من زيتونه الزيت المقدَّس الذي يستعمل في تتويج ملوكهم، وعليه كانت تحرق بقرة القربان الحمراء (في التلمود) وهي في القرآن ﴿ صفراء فاقع لونها ﴾، وكانوا يستخدمون الرماد المتخلّف عن إحراقها في تطهير الهيكل وإعادة تكريسه إذا دنّس، وهي عادة وثنية منتشرة في هذه المنطقة قبل نزول الديانات السماوية. وفي أسفل هذا الجبل توجد

حديقة المعصرة «جتسماني» التي اكتسبت ذكريات قدسيّة لدى المسيحيِّين من صلاة يسوع عندها وهو في النزع الأخير. وفي أعلاه مغارة ألقى فيها المسيح بعض تعاليمه، والتقى بحوارييه قبل صعوده إلى السماء، وعليه بكى المسيح على «أورشليم»، وحياه المؤمنون به بالأغصان الخضراء يوم أحد السعف الذي يتقدّم الفصح. والعرب يسمُّونه اليوم «جبل الطور».

٢ ـ جبل بطن الهوا:

وهو امتداد جبل الزيتون في الزاوية الجنوبية الشرقية للقدس يفصله عنها «وادي سلوان» الذي يتّصل في هذه النقطة نفسها بوادي قدرون. ويسمِّيه اليهود «هارهامشحيت» أي «الجبل الفاضح»، ويزعمون أنّ سليمان أقام عليه المعابد الوثنيّة لنسائه الأجنبيّات، وأنّه هو المقصود في سفر الملوك (الأول ١١/١ ـ ٨): «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون، موآبيّات وعمونيّات، وأدوميّات، وصيدونيّات، وحيثيّات، من الأمم الذين قال عنهم الرَّب لبني إسرائيل: لا تدخلون إليهم وهم لا يدخلون إليكم، لأنّهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم. فالتصق سليمان بهؤلاء بالحب، وكانت له سبعمائة من النِّساء الحرائر وثلثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه، وكان في زمان شيخوخة سليمان أنّ نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه. فذهب سليمان وراء عشتروت إلاهة الصيدونيِّين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشرّ في عينيّ الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه. حينئذٍ بنى سليمان معبداً لكموش، رجس المؤابيين، على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولمولك رجس بني عمون. وهكذا فعل لجميع نسائه الأجنبيات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن».

٣ ـ جبل صهيون:

في الجنوب الغربي للقدس القديمة، وكانت عليه قلعة اليبوسيين التي انتزعها داود منهم بالحرب، ثـم نـقل إليها قاعدة حكمه التي كانت حتى

السنة الثامنة لتوليه الملك في جبل «جرزيم» بالقرب من نابلس شمالاً، وسمّاه منذ هذا الوقت «مدينة داود». وكان يفصل جبل صهيون قديماً عن هضبة القدس جبل أقل ارتفاعاً يمتدّ منحنياً على شكل هلال إلى الشمال الشرقي من صهيون، وكان يمرّ بين الجبلين وادٍ ضيِّق كان يسمّى حسب قول المؤرخ اليهودي يوسفوس ـ من القرن الأول الميلادي ـ «وادي الجبانة، التيروبويون» أي صانعي الجبنة، وكان يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي حيث يتّصل بوادي سلوان، الذي يتّصل بدوره بوادي قدرون شرقاً. وهذا الجبل الصغير لم يرد له اسم خاص في الكتاب المقدّس، ولكن في عهد الملك اليوناني السلوقي انطيوخوس الرابع (أبيفانوس) الذي حكم الشام من ١٧٥ إلى ١٦٤ ق. م، ثار اليهود على حكمه فحضر وقمع ثورتهم وبنى على هذا الجبل الصغير المواجه للقدس من الغرب قلعة سمّاها «أكرا» ومن ثمّ أصبح هذا الجيل يسمّى:

٤ ـ جبل أكرا.

٥ ـ جبل موريا:

أو جبل بيت المقدس، أو بالاختصار «الحرم» حيث المسجد الأقصى وقد ورد اسم «موريا» في التوراة (التكوين ٢٢/٢) في قصّة الذبيح الذي أمر اللّه إبراهيم أنْ يقدّمه قرباناً وحدّد له هذا الموضع ليذبح فيه ابنه إسحق. والموضع ما يزال حتّى الآن محل خلاف كبير في هذه القضيّة بين الباحثين وبين اليهود أنفسهم، فاليهود السامرة يرون أنّ الحادثة كانت على جبل جرزيم القريب من نابلس، حيث قام أقدم هيكل لبني إسرائيل وهو الذي جاء داود فأبطله وعطّله بعد أن نقل عاصمته إلى القدس، أمّا طوائف اليهود الأخرى فتزعم أنّ وقفة إبراهيم بابنه كانت على هذا الجبل بالقدس، وعلى الصخرة الشريفة بالذات. وأكثر المسلمين يعتقدون أنّه إسماعيل.

٦ ـ جبل رأس المشارف «سكوبوس»:

ويسمِّيه التلمود «جبل المراقبين» (هارهاصوفيم) وهو امتداد لجبل

الزيتون من الشمال الشرقي إلى الشمال، يفصل بينهما منخفض يسمّى «عقبة الصوّان».

٧ ـ ويبدو أنّه كان في قديم الزمان جبل يقوم بين جبل سكوبوس وبين هضبة الحرم «جبل موريا» ذكره يوسفوس في كتابه (حرب اليهود ـ الجزء الأوّل، الباب الخامس) وسمّاه «بيزيتا» أي «بيت الزيتون» أو «منبت الزيتون». ولمّا تولّى «أجريبا الأول» (٤١ ـ ٤٤ ميلادية) وهو من أسرة هيرودس التي اهتمّت كثيراً بتجميل القدس كما سنرى، ردم ما بين «جبل موريا» وجبل «بيزيتا» ومد أسوار المدينة إلى ما وراء هذا الجبل الأخير بحيث أصبح حيًّا من أحياء القدس كان يسمّى «المدينة الجديدة».

وعلى ذكر هذا الردم بين جبلين فقد حدث في القدس نفسها قبل ذلك، في حكم الأمير اليهودي المكابي شمعون من أسرة الحشمونيين التي كانت تحكم فلسطين دينياً من قبل اليونان، نقول: في هذا الوقت (سنة ١٤٠ ق.م) قام شمعون بردم ما بين تل «أكرا» حيث قلعة انطيوخوس السلوقي وبين جبل الحرم «موريا» بحيث صارا شيئاً واحداً أيضاً.

وهكذا إذا أخرجنا جبل الزيتون وامتداده جنوباً وشمالاً، لانفصاله التام عن القدس بالمنخفضات والوديان الشرقية والجنوبية الشرقية وأخذنا في الاعتبار أنّ جبل الحرم «موريا» أصبح يضم جبل «بيزيتا» من الشمال الغربي، وجبل «أكرا» من الجنوب الشرقي، أمكننا أنْ نقول: إنّ المدينة كانت تقوم بهذا الشكل على مرتفعَيْن اثنين هما هضبة «الحرم» وقبالتها في الجنوب الشرقي «جبل صهيون» يفصل بينهما جزء من وادي الجبانة «تيروبوبون»، وهذا ما لاحظه المؤرخ اللاتيني تاسيت في كتابه (الجزء الخامس).

ويذكر يوسفوس أيضاً أنّه كانت هناك قنطرة تربط هضبة الحرم «جبل موريا» بالزاوية الشمالية الشرقية لجبل صهيون -حيث كان يوجد كورنيش يقال

له باليونانيّة «كسيستوس» وهذا العمل يرجع أيضاً إلى أمراء الحشمونيين الذين حكموا باسم اليونان في فلسطين، فهم ردموا جزءاً من الوادي وبنوا قنطرة قائمة على عقود مقوَّسة توصل من «مدينة داود» على جبل صهيون إلى «الحرم» على جبل موريا وهو الطريق الذي يمتدّ الآن من الحرم إلى باب السلسلة.

ولا نستطيع ـ وقد أوضحنا مواقع جبال القدس وما طرأ عليها ـ إلّا أن نشير إلى المنخفضات أو الوديان الفاصلة بينها مجتمعة بعد أن سبقت الإشارة لبعضها في مواقعها.

١ ـ وادي قدرون شرقاً:

وهو اسم جدول الماء الذي يجري في قاعه عندما يسقط المطر، وقد اشتهر باسم «وادي يهو شافاط» (سفر يوئيل ٣/٢، ١٢) وطوله نحو كيلو مترين يفصل السور الشرقي للقدس عن جبل الزيتون. ويعتقد كثير من الطوائف المسيحيّة واليهودية أن الحشر يوم القيامة سيكون في هذا الوادي اعتماداً على قول النَّبي يوئيل: «أحمل كل الأمم وأنزلهم إلى وادي يهوشافاط وأحاكمهم هناك»، وفي الموضع الثاني الذي أشرنا إليه يقول النَّبي يوئيل: «تنهض الأمم وتصعد إلى وادي يهوشافاط لأني هناك أجلس لأحاكم جميع الأمم من كل ناحية».

٢ ـ وادي سلوان جنوباً:

وهو اسم النَّبع الموجود في هذا الوادي، والذي ينساب منه مجرى ماء اسمه جيحون، أمّا الوادي نفسه فكان يحمل قبل مجيء العبريين اسم قبيلة «هنّم» بتشديد النون، فكان يقال «وادي هنم» أو «وادي بني هنم». وكلمة الوادي كانت في لغات سامية قديمة متعدِّدة هي كلمة «جي»، فكان يقال «جيهنم» أي هذا الوادي نفسه، وكانت هذه القبيلة، في الوثنية البعيدة في القدم، تقدِّم الضحايا البشريَّة إلى إلهها «مولك» بذبحها وإلقائها في النّار، ومن هذه الصورة أطلق اسم «جهنَّم» على مكان العذاب في الآخرة للشبه

القائم بينهما. ووادي «هنم أو «سلوان» أو «جيحون» هذا يمتد على طول جنوبي القدس حتّى الطرف الجنوبي الشرقي من جبل صهيون. وسمِّي هذا الوادي بين العرب «حقل الدماء».

٣ ـ وادي الجبانة أو «التيروبيون»:

يفصل جبل صهيون عن غرب القدس ويبدأ حيث ينتهي وادي سلوان وكان يسمّى في الجزء الجنوبي الغربي من القدس «وادي الزبالة» أو «وادي الدمن» أو «وادي القمامات»، وقد أشرنا إلى ردم جزء منه في أعمال توسيع لجبل صهيون وللحرم المقدَّس الواقع على جبل «موريا» الذي هو هضبة الحرم الشريف.

٤ ـ وادي الأرواح:

«رفائيم» بالعبرية، أو العفاريت، يدور حول غرب جبل صهيون وأقصى الجنوب، وبه مدافن للموتى.

داود... ومدينته

قلنا: إنّ القدس ظلّت فلسطينية في أيدي اليبوسيين إلى السنة الثامنة من حكم داود. كان داود من الجنوب، من صحراء النقب، حيث اختارت قبيلته ـ سبط يهوذا ـ تلك الجهة مسرحاً لحياتها البدوية الرعوية. ثم إنّه انتقل إلى الشمال حيث كان نبيّ بني إسرائيل «صموئيل» قد توج شاؤول أول ملك على كل الشعب، وكان داود قد أُلحق ببلاط شاؤول. وفي هذه الآونة كان سكان البلاد الأصليين «الفلسطينيين» يريدون التخلّص من الوجود «العبري» في بلادهم، وكانت الحرب سجالاً بينهم وبين الإسـرائيليين. وبرز من الفلسطينيين بطل عملاق مخيف هو «جالوت»، استطاع داود أن يقتله بحجر أطلقـه من مقلاع، ثم قطع رأسه بعد ذلك، وأخذها ليفخر بانتصاره في الجنوب، ومرّ بها على أورشليم. ومنذ هذا الوقت بدأت شعبية داود في الاتساع حتى بات الملك شاؤول يحقد عليه ويدبر الأمر لاغتياله دون جدوى

وأخيراً تعرّض شاؤول لهزائم ساحقة ومتعدّدة من «الفلسطينيين» انتهت بأن انتحر على أحد الجبال على أثر معركة فاشلة، وأصبح داود بعده ملكاً. فأراد أن يترك الشمال إلى نقطة حصينة أكثر توسطاً من حيث الموقع، فوجد مطلبه هذا في «مدينة اليبوسيين» أورشليم. فهي قريبة من ديار سبط يهوذا وهم عشيرة داود، وهي وعرة المسالك للقادم من الأردن أو من البحر أو من الشمال على السواء، وهي حصينة غير مكشوفة للغزاة، ثم إنّها بعد كل هذا في وسط عشائر فلسطينية قديمة يبدو أنّهم كانوا أكثر ميلاً إلى المسالمة من أهل الشمال.

بدأ داود بالاستيلاء على جبل صهيون، وكانت فيه قلعة أمامية لليبوسيين يدافعون منها عن القدس، وكانوا يسمُّون جبل صهيون بالمنشآت القائمة عليه «المدينة الفوقانية»، بالنسبة لهضبة الحرم «جبل موريا» التي كانوا يسمّونها «المدينة التحتانية». استولى داود إذن على «المدينة الفوقانية» وحصّنها وجعلها قاعدة لحكمه، ولمّا كانت أسرته هي سبط يهوذا، فمنذ هذا الوقت بدأ العبريون أو الإسرائيليون يسمّون باليهود أيضاً، ولمّا كان داود، على طريقة أمراء بني إسرائيل ورؤسائهم في العصور القديمة، وعلى طريقة الكثير من الحكام القدماء، يستمدُّون سلطتهم من «الله»، فقد جعلوا صهيون مقر السلطة الدينية والسياسة والعسكرية جميعاً. ولم يجد غلاة المتعصبين من اليهود في العصر الحديث تسمية أكثر سحراً في أذان فقراء اليهود وبسطائهم من «الصهيونيّة» وما تقترن به من قوّة داود وشدّة شكيمته وأبهة سليمان وبهاء عظمته وفخامته على عرشه الأسطوري العجيب، فاختاروها اسماً وشعاراً.

ظلّ داود يضغط على اليبوسيين، ويضايقهم في جبلهم «موريا» ويريهم صنوف الإذلال، وهم يرحلون تاركين له ديارهم حتّى لم يبق إلّا مسطّح القمة، فكان المسجد الأقصى وقبّة الصخرة ملكاً لليبوسي «آرونا» يتّخذه جرناً ومربضاً لماشيته، فاشتراه منه داود بما فيه من المواشي، وقالوا في عنعنات شفوية يهودية لا يقوم عليها أي دليل: إنّ داود جعل من الصخرة التي على

الهضبة مذبحاً للرب. وصاغوا حول ذلك أساطير لا تكاد تنتهي حتى قالت بعض نصوص التلمود (توسفتا ـ يوما/٨٤، ٨): «إن الله تعالى خلق الأرض ابتداء من هذه الصخرة»، وقال أحد أحبارهم وهو اليعازر البابلي: «إنّ الصخرة هي أصل خلق الأرض، وإنّ صهيون هو سرة العالم، وهو كامل الجمال والبهاء» (التلمود البابلي ـ يوما/٥٤). وجاء في كتاب «زوهر» وهو من كتب التصوُّف اليهودي المشهورة: «إنّ يعقوب نام على الصخرة وهو منطلق من بيت أبيه إسحق» بينما المعروف أنّه نام في «بيت إيل» قرب نابلس. ولكن هذا التحريف يهدف إلى نقل قدسية «بيت إيل» المجاورة لنابلس، والتي ظلّ اليهود السامريون على وفائهم لها كقبلة ليعقوب، إلى أورشليم.

والحق أنّنا لا ندري أيّة صخرة يعني اليهود، فالتلمود يذكر أنّ الصخرة التي يقدِّسونها ترتفع عن مستوى سطح الأرض ثلاثة أصابع (التلمود ـ يوما/٨٥ ـ ٣، ٤، توسفتا ٦/٨٣ وموسى بن ميمون في كتابه «طقوس يوم الغفران») بينما الصخرة الموجودة حالياً ترتفع عن مستوى سطح الأرض بنحو متر كامل، ومحيطها يناهز العشرة أمتار، وتحتها فجوة هي بقية مغارة قديمة عمقها أكثر من متر ونصف، تبدو الصخرة فوقها وكأنّها معلّقة بين السماء والأرض، وبين الصخرة وقاع المغارة دعامة من الخشب حتى لا تنهار.

ومن الذين شكوا في أنّ تكون الصخرة الشريفة هي الصخرة المعنيّة في التلمود، الباحث الألماني «شيك» في أوائل هذا القرن، فهو يقول: (إنّ الصخرة الحالية ربّما كانت على أكثر تقدير إحدى ركائز المذبح الخاص بالقرابين فقط. ولم تكن في يوم ما داخلة ضمن قدس الأقداس). أمّا صخرة اليهود التي يسمّونها حسب أساطير التلمود التي أشرنا إليها «إيبن هاشتيا» ـ أي حجر الأساس ـ فالله أعلم ماذا صنع بها بختنصر وانطيوخوس أبيفانوس وتيتوس وفسبازيان وهدريان والصليبيون وغيرهم ممن دمروا أورشليم مراراً وتكراراً تدميراً كاملاً.

والعجيب في أمر الباحثين اليهود، وفي مقدِّمتهم دوائر المعارف العبرية المختلفة، وما كتبوه من المؤلفات عن القدس، أنّهم إذ يؤكدون بدون أيّة حجّة أنّ الصخرة الشريفة هي «حجر الأساس» المذكور في التلمود، ينفون نفياً باتاً أن تكون كنيسة القيامة بالقدس ذات علاقة أياً كانت بجسد المسيح عليه السلام، فدائرة المعارف الإسرائيلية العبرية المنشورة في نيويورك سنة ١٩١١ تقول في هذا الصدد: إن دفن الموتى داخل أسوار القدس كان لا وجود له إطلاقاً. وإنّ أقرب المقابر إلى أسوار القدس هي مقابر «سامبوسكي» عند قدم جبل صهيون من الطرف الجنوبي الشرقي خارج السور مباشرة. والمقابر المذكورة تحمل اسم العائلة التي بنت فيها مدفناً كبيراً في العصر الحديث، وقد عثر فيها على مقابر قديمة أيضاً وأضاف كاتب البحث إلى ذلك أنّه طيلة عهد الهيكل الثاني (أي من القرن الخامس قبل الميلاد إلى سنة سبعين ميلادية) لم يدفن أحد داخل أسوار المدينة المقدّسة، وبناء على ما ذكر يكون مستحيلاً في رأيه أن يكون الجسد المصلوب قد دفن في هذه البقعة التي هي من صميم أورشليم وفي داخل أسوارها.

ولا نريد أن نناقش الأمر «بيزنطياً» وإنّما نشير إلى أنّ المسيح وأتباعه لم يتمسّكوا من الشريعة القديمة إلّا بالناموس الموسوي والأوامر والنواهي التي أبلغها الأنبياء، أمّا «التلموديات» التي لا تعد ولا تحصى فقد كانت رسالة المسيح في جوهرها ومنطوقها تنادي وتجاهر بإبطالها وتطهير العقول منها، حتى لا يخضع الشعب اليهودي خضوعاً أعمى لظلامها المطبق، الذي تفرضه السلطة الكهنوتية اليهودية على الشعب البسيط المخدوع عن النور الحق. وما دام الأمر كذلك، فما الذي يفرض على أتباع المسيح في عشية الصلب، وأيدي كهنة التلمود ما تزال مخضبة بدمائه، أن يحترموا عرفاً لا يستند إلى أمر أو نهي من الله؟ ثم إن الحفائر المختلفة ما تزال كل يوم تكشف عن موتى لا يحصى عددهم وجدت عظامهم داخل الأسوار.

مدينة داود . . . بعد داود

ورث سليمانُ داود، وكان ملكاً يحب الفخامة ويميل إلى حلّ مشاكل السياسة والاقتصاد حلولاً دبلوماسية لا يلجأ فيها إلى قوّة السلاح، فصاهر جيرانه مبتدئاً بالقصر الفرعوني في مصر إذ تزوّج ابنة فرعون، ثم غيرها وغيرها من بنات الملوك والحكام المحيطين بمملكته الصغيرة.

وحاول أن يجعل عاصمة ملكه ـ أورشليم ـ لا تقلّ عظمة وعمراناً عن العواصم الكبرى في الشرق في زمانه، فبدأ بتشييد سور فاخر حول المدينة، ثم أخذ في بناء المعبد الكبير ـ الهيكل ـ الذي كان أبوه داود قد بدأه قبل موته، ومع ذلك فإنّ الأخبار الأسطورية عن فخامة هذا الهيكل وضخامته لا يمكن أن تكون قد نجت من شطحات الخيال اليهودي الحالم فجاءتنا مبالغاً فيها أشد المبالغة.

وهكذا يقول الكاتب اليهودي الأمريكي لويس براون في كتابه المسمّى «حياة اليهود»: إنّ إنجازات سليمان في أورشليم، وفي مقدِّمتها قصره الملكي كانت تبدو في عيون اليهود السذج من رعيته فخمة فخامة تفوق التصور، مع أنّها لو قورنت بالقصور الهائلة في مصر أو بابل أو الهند لبدت ضئيلة سمجة الذوق(١).

كان القصر مكوّناً من عدّة أبنية منفصلة: بناء للصنّاع، وقاعة للاجتماعات، وبهو للعرش، والمحكمة العليا، و«حَرَمْلك» كبير يكفي لسكنى المئات من نسائه. وكان هناك أيضاً معبد، وهو بناء صغير طوله مائة قدم وعرضه ثلاثون قدماً، موضوع فيه «تابوت العهد» ـ هذا الصندوق الذي تُحفظ فيه التوراة ـ ولا شك أنّ المعبد كان بالنسبة لسليمان مشروعاً أقل أهميّة

(١) هذا الكلام لا نوافق عليه الكاتب الأمريكي وغيره من الكتاب الذين يستهينون بملك النبي الملك داود وابنه سليمان عليهما السلام، فقد أُوتيا ملكاً عظيماً على حد تعبير القرآن الكريم، ولقد دعا سليمان ربه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبْ لي مُلْكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب﴾ ولقد أُعطي هذا الملك. (الناشر).

من القصر، كان مقصورة دينية في بلاط الملك، ولذا لم يستغرق بناؤه أكثر من نصف الوقت الذي استغرقه بناء القصر. ولكنه مع مرور الزمن، وبعد الكهنة والأنبياء الذين وفدوا عليه على طول حكم أسرة داود، كان يتخذ في خواطر اليهود مكانة، وكانت له من بعد ذكريات، ربما لم يستطع شيء آخر على هذه الأرض أن يضمّها مثل ما استطاع هو بقاء إسرائيل عليها، مع أنّه كان في حدّ ذاته أصغر من أي معبد في أمريكا الآن، ومن كثير من كنائس الأرياف المنتشرة في أنحاء العالم. بالرغم من هذا فإنّه أقوى بناء شيَّدته يد الإنسان من حيث عمق أثره وقوته.

وما يقوله لويس براون صحيح، بل ربّما كان دون الأبعاد الحقيقية لسيطرة هذا الهيكل على نفوس اليهود وخيالهم، بعد تدميره واندثاره. وحتى الآن اقترنت أورشليم به، وتقدّست لدى اليهود من أجله، وإذا ذكر اسمها فالمراد هو أولاً وقبل كل شيء. وما كتبه الكتّاب والأحبار من شطحات خيالهم حول ذلك شيء تضيق عنه مئات المجلّدات، بحيث كان كل اليهود في حاراتهم القذرة وأسمالهم البالية، على الثلج، وفي الوحل، يعيشون في هيكل أورشليم مع سطور التلمود ومع كتابات الأحبار، وكانت صيغة المعايدة الدائرة على ألسنتهم ـ وبخاصة في عيد الفصح ـ هي: «السنة القادمة في أورشليم»، وهو شعار استغلّته الصهيونية، وكهربت به أعصابهم، وأعطته كل المعاني الحربية والعسكرية الممكنة.

ولنذكر نموذجاً واحداً من هذه الشطحات الكهنوتية اخترناه من كتاب التصوّف اليهودي «زوهر» ٢/٢٢٢: «عند خلق العالم، ألقى الله حجراً كريماً من عرشه العظيم في الفضاء المظلم، فغطس فيه جزء من هذا الحجر وبرزت بقيته فوق السديم. وهذه البقية البارزة كنقطة في هذا الفضاء اللانهائي بدأت تمتد في كل الاتجاهات عن يمين وشمال، وأرسيت الدنيا عليها، ولذلك يسمّى هذا الحجر «حجر الأساس»، وكان تكوين الأرض حوله على ثلاث مراحل: المرحلة الأولى عبارة عن منطقة مستديرة حول الحجر

نورانيّة شفّافة، والثانية من حولها مصنوعة من مادّة أقلّ شفافية ولكنّها أكثر رقّة من الأرض، والثالثة أرض معتمة يطوِّقها المحيط الذي يدور حول العالم. وهذه المناطق الثلاث ممثّلة في الهيكل الذي في أورشليم: فالمنطقة النورانيّة، وهي النقطة العظمى، عبارة عن الهيكل ومدينة أورشليم، والثانية، الأقل شفافية، هي الأرض المقدّسة «فلسطين»، والثالثة المعتمة هي بقية العالم، حيث تسكن الأمم غير اليهودية من الكفَّار. أما المحيط الذي يدور بكل شيء فهو مملكة الجن التي تحيط بالعالم. ولم تر الدنيا قط شيئاً أجمل من ستائر تابوت العهد. وعندما أدخل تابوت العهد إلى الهيكل صاح بآية المزامير ١٣٢/١٤: «هذا مستقري إلى الأبد وهنا سوف أقيم. وكان صوت الروح القدس يردّد هذه الكلمات على مسامع إسرائيل».

ولولا الهيبة التي يجب اصطناعها أمام مقدَّسات النّاس جميعاً تأدّباً واحتراماً لمشاعرهم لعبّرنا عن رأينا بصراحة في مثل هذه الشطحات، وإن كان لا يغيب عن البال ما يهدف إليه الرواية لهذا اللون من الأدب الشعبي من تأكيد العنصرية البغيضة التي اخترعها «شعب الله المختار» وكان أوّل من اصطلى بنارها أيضاً، ومن تأكيد البقاء الأبدي في «أورشليم»، بينما المسكين قد عاش تائهاً غارقاً في «المنطقة المعتمة» القريبة من «مملكة الجن» المحيطة بالأرض... رحمه الله..

وما كاد سليمان يلقى ربّه حتّى حدثت حرب أهلية بين الأسباط وانقسمت المملكة شطرين، وأصبح الهيكل وأورشليم قبلة لنصف العبريين فقط.

ثمّ تعرّضت القدس مباشرة لهجوم الجيش المصري الفرعوني (حوالى سنة ٩٧٠ ق. م). وهي تحت حكم «رحبعام بن سليمان» وتوالت عليها بعد ذلك الهجمات المتلاحقة: من الأدوميين في الأردن إلى العرب إلى الأراميين إلى الإسرائيليين في مملكة الشمال، عندما هاجم يهوآش ملك إسرائيل أمصيا ملك أورشليم ويهوذا، وهدم أسوارها وأخذ ما في الهيكل من

الذهب والفضّة والأواني، ونهب القصر وأخذ بعض الرهائن وعاد إلى السامرة (الملوك الثاني ١٤/١٤).

وتكرّر الزحف المصري على أورشليم في حكم الفرعون نخاو، وكان ملك يهوذا يهو آحاز (حوالى ١٦٠ ق. م).

ثم انتعشت أورشليم في عهد الملك عزيا الذي حكم أكثر من نصف قرن من الزمان، وكان مهتمّاً بتحصينها فبنى حولها أبراجاً وحفر آباراً وأنشأ البساتين والحدائق (أخبار الأيام الثاني ٢٦). واستمر إنشاء البوابات والتحصينات على عهد ابنه يوثام.

وتبلور الخطر الأشوري على القدس في عهد سنحاريب الذي كان معاصراً لحزقيا ملك يهوذا، فأخذ هذا الأخير في زيادة التحصينات بالقدس وقام بردم آبار الماء التي في خارجها حتى لا ينتفع العدو بها وكذلك الجداول الجارية منها، ودعم السور في المواضع المتهدِّمة منه وحصن قلعة داود على جبل صهيون، وقام بمشروع هندسي ناجح أجرى به مياه نهر جيحون الذي يجري جنوباً خارج القدس تحت الأرض إلى داخل المدينة، وأنشأ صهاريج للماء، وهكذا استطاع أن يواجه الحصار الأشوري دون أن يضطر إلى الإذعان.

الخراب الأوّل، والهيكل الثاني

كان بختنصر ملك بابل يحاول أن يسوِّي حساباً قديماً مع فراعنة مصر، ولكنه في كل مرّة يجد عقبةً ما في فلسطين تظهر له فجأة من قبل اليهود فيبوء بالفشل، وأخيراً (سنة ٥٨٨ ق. م) هاجم القدس بعد أن كان استولى على أهم أجزاء فلسطين، ومنها غزّة في أقصى الجنوب، وكان ملك يهوذا في ذلك الوقت «صدقياهو»، ولمّا سقطت القدس بعد مقاومة رهيبة أحرقها الجيش البابلي وخرَّبها ونهبها، وأخذ معظم أهلها أسرى إلى العراق حيث

بقوا سبعين عاماً، إلى ما بعد نجاح الإمبراطور كورش ملك الفرس في احتلال العراق وإسقاط الإمبراطورية البابلية، وقد لقي جيشه بطبيعة الحال كل التسهيلات اللازمة لمهمّته من قبل اليهود الموتورين المحتجزين في العراق، فسمح على الفور بعودتهم إلى فلسطين وتأسيس «وطن قومي» تحت رعايته وحمايته داخل ملكه وسلطانه، فعاد كثير منهم برئاسة يوشع بن يوصدق وزروبابل بن شلتئيل، وبعدهما بثمانية عشر عاماً جاء عزرا ونحميا الذي أخذ في إعادة بناء هيكل سليمان (يقول الرواة: بصورة أقلّ فخامة) ولعلّ ذلك من فرط إعجابهم الخيالي بهيكل سليمان فقط.

وفي سنة ٣٣٢ ق. م. احتلّ الإسكندر فلسطين وأُدخلت تحت الحكم اليوناني، ولكن أحد أحبار اليهود وهو «شمعون بن حونيو» استطاع بدبلوماسيّته أن يحوز رِضا الإسكندر وأن يظفر منه بمزيد من العناية بتجميل القدس (التلمود، يوما). وبعد موت الإسكندر استولى بطليموس الأوّل «سوتير» على أورشليم حوالى سنة ٣١٠ ق. م وأخذ كثيراً من أهلها أسرى إلى الإسكندرية.

ثمّ زحف عليها ملك سوريا أنطيوخوس السلوقي اليوناني سنة ٢٠٣، وعاد فاستردّها منه القائد البطلمي «سكوباس» المصري سنة ١٩٩. والظاهر أنّ اليهود في المدينة كانوا أميَل إلى حُكم السلوقيين، وقد ساعدوا أنطيوخوس على دخول القلعة، كما يقول «يوسفوس»، ومباغتة المصريّين فيها. وبسبب ذلك خفّف أنطيوخوس الضرائب عن يهود القدس، واهتمّ بعمارة الهيكل والمدينة وتدعيم حصن داود. ويصف اليوناني أرسطياس، المعاصر لهذه الأحداث، فخامة القدس بما يبيّن أنّها كانت مدينة كبيرة لها أسوار عليها أبراج، والخدمة الدينية في الهيكل كانت على أرفع نظام، وكان عدد السكان مائة وعشرين ألفاً. وتعوّد اليهود بعادات اليونان، وتركوا الرب، وظهرت فرقة «ياسون» وأخيه «منيلاوس»، وقالا بأنّ منصب الحاخام الأكبر يجب أن يكون بالوراثة لا بالانتخاب وحدثت فتنة كبيرة، انتهزها الحاكم السوري أنطيوخوس

إبيفانس فزحف على أورشليم سنة ١٧٠ ق. م. ونهبها وذبح كثيراً من يهودها.

وبعد ذلك بعامين هجم قائده أبولونيوس على المدينة مرّة أخرى فأكثر فيها من القتل والتخريب واقتحم الهيكل وأقام فيه تمثال أنطيوخوس، وبنى بجواره مسرحاً للتمثيل وأخذ معه رهائن من يهود القدس. فقام من أمراء المكابيين اليهود الحشمونيين «متتياهو» ثائراً ضدّ اليونان هو وأولاده الخمسة ثمّ أتمّ يهوذا المكابي هذه الثورة بطرد اليونان من الهيكل، ومن جزء كبير من المدينة سنة ١٦٥ ق. م. وواصل هذا الكفاح شمعون المكابي، ففي سنة ١٤٣ طرد الحامية اليونانية من قلعة داود «صهيون».

وعاد اليونان بقيادة أنطيوخوس السابع (سيديتاس) في عهد يوحنّا هيرقانوس المكابي فاتّقى هذا الأخير شرّه بتقديم قوالب من الذهب استخرجها من قبر داود، يقول يوسفوس: (إنّ وزنها كان ٧٥ طناً)، ثمّ حدث نزاع على العرش بين هيرقانوس وأخيه أرسطوبولوس في داخل القدس.

أورشليم وروما

أثناء هذه الفتنة زحف القيصر الروماني «بومبي» على فلسطين واحتلّها سنة ٦٦ ق. م. وقتل من اليهود في القدس وحدها ١٢,٠٠٠، بينما كان اليهود يخرِّبون كلّ شيء بأيديهم ويحرقون المدينة كلّها بالنيران حتّى لا ينتفع بها العدو.

وبعد مدّة وجيزة كثرت الاضطرابات في أورشليم، فزحف عليها حاكم سوريا الروماني «لوقيانوس كراسوس»، ودخل الهيكل ونهبه، وكان ما فيه من الذهب والفضّة والآنية الثمينة يقدّر بنحو خمسين طنّاً.

وزار يوليوس قيصر فلسطين، فأذن لليهود في بناء الأسوار التي كان بعضها قد تهدّم.

وفي هذه الأثناء كان هؤلاء «الأمراء» من أواخر المكابيّين ما يزالون يتنازعون على السلطة، أو ما بقي لهم منها في أورشليم، وهي سلطة أخذ الزكاة من اليهود، وإدارة القضاء بينهم، وتنفيذ الأحكام الشرعية فيهم... أمارة كاريكاتورية تأخذ من اليهود الزكاة بيد وتصلبهم باليد الأخرى.

وانتهز هيرودس الأدومي فرصة هذه المنازعات وزحف على المدينة سنة ٣٧ ق. م يساعده القائد الروماني سوسيوس، فحاصراها وصبا عليها قذائف المنجنيق واقتحماها وقاما فيها بمذبحة رهيبة.

وافق القيصر الروماني أغسطس على تعيين هيرودس على القدس «وكل بلاد اليهودية» أي النصف الجنوبي من فلسطين. فاهتمّ بإعادة تخطيط المدينة وتدعيم أسوارها، وتزويدها بأبراج حصينة للحراسة، لا سيما في النقطة الضعيفة استراتيجياً من المدينة وهي الغرب والشمال الغربي حيث أحياء القدس الحديثة الآن. فأقام في هذه الجهة برجاً سمّاه برج «هيبيوكوس» باسم واحد من أصدقائه قُتل وهو يحارب في صفوفه في إحدى المعارك، وهذا البرج هو الذي يسمّى خطأ الآن «برج داود». وفي أقصى الزاوية الشمالية الغربية من السور بنى حصناً في موضع حصن «البيرة» الذي أقيم بعد عودة اليهود من السبي، وكان قائماً في عهد المكابيين ثمّ تهدم، وسمّاه هيرودس حصن «أنطونيا» على اسم صديقه وحاميه أنطونيو (صاحب كليوباترا) أمّا تسمية «البيرة» فهي فارسيّة معناها القلعة، ولم تعرفها اللغة العبرية إلّا تحت حكم الفرس.

وكان هذا الحصن مربّعاً طول ضلعه نحو تسعين متراً، وفي داخله قصر عليه سور مربّع آخر، تقوم عليه أربعة أبراج، ثلاثة منها ارتفاعها خمسون ذراعاً، والرابع ارتفاعه سبعون ذراعاً، وهو البرج الشمالي الشرقي أقرب هذه الأبراج إلى الهيكل، ومن أعلى هذا البرج كان جنود الاحتلال الروماني يراقبون ما يجري داخل معبد اليهود، الذي حظي من هيرودس أيضاً بالعناية فأعاد بناءه وزخرفته. وفي الجهة الجنوبية الشرقية استقرّ الملك المتهوّد

«موناباز» وأمّه المتهوّدة أيضاً «هيلانة»، وكانا يحكمان قبل تهوّدهما مقاطعة أديابين في بلاد الأكراد، شمال شرقي سوريا ثمّ تهوّدا ولجآ إلى أورشليم فبنيا إلى الجنوب من جبل صهيون قصوراً ومقابر في غاية الإتقان.

كان اليهود في أورشليم لا يكفون عن مناوشة الحامية الرومانية المعسكرة في قلعة أنطونيا. فأمر «أجريبا الأوّل» الموظّفين الرومان بإحكام الرقابة على اليهود والتشدّد في معاملتهم، ووصل الحقد إلى أقصاه بين الطرفين أثناء دعوة السيّد المسيح، والفتنة التي أحدثها الكهنوت اليهودي حينئذٍ، وكان القيصر كليوديوس قد أمر ـ نكاية في اليهود ـ بوضع تمثال لنفسه في الهيكل، بقي في مكانه إلى أن مات هذا القيصر مسموماً سنة ٤٥ بعد ميلاد المسيح.

الخراب الثاني ـ والأخير ـ لأورشليم

دأب اليهود على خلق المشاكل للرومان، مشاكل ومضايقات صغيرة كانت متلاحقة ومفاجئة، فقرّر الامبراطور الروماني فسبازيان القضاء عليهم، وحلّ المشكلة كلّها هذا الحل الجذري الدامي، فأرسل ابنه تيتوس على رأس جيش كبير للقيام بهذه المهمة، وبعد مؤامرات كثيرة قام بها اليهود واستعملوا فيها كل شيء، حتّى النساء، في تليين عريكة تيتوس دون جدوى، تمّ تخريب أورشليم في ٨ ديسمبر سنة ٧٠ ميلادية وإجلاء جميع اليهود عنها، وهو «السبي الثاني» الذي ظلّوا فيه من هذا التاريخ إلى سنة ١٩٤٨ عندما أعلن حاييم وايزمان قيام «إسرائيل».

ولكن بالرغم من أنّ تيتوس قد بذل أقصى الجهد في جعل عودة اليهود إلى سكنى القدس أمراً مستحيلاً، فإنّ من بقي منهم في فلسطين لم يكفّ عن التآمر ضدّ الرومان.

إيليا كابيتولينا . . . لا أورشليم

وفي القرن الثاني الميلادي، سنة ١٣٦، قام «بركوكبا»، أحد نماذج الصهيونيّة القديمة، بثورة مسلّحة ضدّ الرومان، وسجّل عليهم، رغم جيشهم الامبـراطوري الجـرار، انتصارات بـرّاقة في البـداية، ولكن الامبـراطور الروماني إيليوس هدريان قام آخر الأمر بإتمام ما بدأه تيتوس، فحاصر ما كان بقي من القدس، وهدم كل شيء في المدينة، ولم يترك فيها يهودياً واحداً، وجاء إلى مكان الهيكل فأقام عليه معبداً لجوبيتر كبير آلهة الرومان، ووضع فيه تمثالاً لهذا الإله كالتمثال القائم في معبد الكابيتول، وقرّر تغيير كل شيء في هذه المدينـة، حتى اسمها، الذي أصبح مكوّناً من اسمه هو واسم الكابيتول معبد جوبيتر الكبير، فسمّاها «إيليا كابيتولينا» ومنع اليهود من دخولها، وجعل الموت عقوبة من يقدم منهم على ذلك، ثمّ سمح لهم بالمجيء إليها يوماً واحداً في السنة، والوقوف على جدار بقي قائماً من السور في الجزء الغربي من المدينة، وهو الذي يسمّى «حائط المبكى» ويسمّيه اليهـود «الجدار الغربي». وظلّ حظر السكنى بالقدس قائماً على اليهود قروناً طوالاً، فقد ذكر ذلك يوزيبوس، المؤرخ المسيحي الذي زار «إيليا» ـ القدس ـ سنة ١٣٢ ميلادية، كما ذكره اليهود أنفسهم في تفاسيرهم القديمة «المدراش» (سفر الجامعة ـ قوهيلت ربا).

دموع التماسيح على حائط المبكى

كان الأتقياء الطيِّبون من اليهود، وفيهم أتقياء طيِّبون، يقفون على «الجدار الغربي» باكين، طالبين الرحمة من اللّه، والمغفرة لذنوبهم وذنوب أسلافهم، التي بسببها دمّر اللّه ملكهم مرّتين: على يد بختنصر البابلي وتيتوس الروماني. أمّا كهنة السياسة الصهيونية عبر العصور فجعلوا هذا الحائط «مسمار جُحا»، يتّخذونه منطلقاً لكل دعوة عنصرية جديدة. ولذلك زعم بعضهم أنّه بقية من سور داود، وقال آخرون: إنه جزء من حائط

سليمان، ونسبه البعض إلى المكابيين أو هيرودس، وقد قام الأثريّون الإسرائيليون بعد حرب يونيو ١٩٦٧ بعمل حفائر في أساس الحائط، فكان أقصى ما عثروا عليه، في الحجارة التي تحت الأرض، آيتين من سفر النبيّ أشعيا محفورتين بخط يجعل نسبة هذه الحجارة لداود أو سليمان مستحيلة. ويرجع العثور على هذا النّص إلى الشهور السابقة لإحراق المسجد الأقصى، ولأنّ الكشف لم يكن دسماً من الناحية السياسية كما يريد الصهاينة، فقد وضعوه في «قبر السكوت» كعادتهم في كثير ممّا لا يريدون أن يعرفه العالم عنهم.

ولكن الذي لا شكّ فيه هو أنّ هذا الحائط جزء من سور المعبد اليهودي، وقد يرجع على أكثر تقدير إلى أيام هيرودس، أي إلى فترة المسيح. وتُفضي إليه طريق طولها نحو ثلاثين متراً وعرضها أربعة أمتار (وقد نسف اليهود ذلك وعاثوا فيه منذ يونيه ١٩٦٧).

وارتفاع الحائط ثمانية عشر متراً عن سطح الأرض، الستة أمتار الأولى منها مبنيّة بحجارة مستطيلة ضخمة مثل التي يعثر عليها في أساسات السور، يضاف إليها من فوق ١٤ سطراً من حجارة أصغر يبدو أنّها قد عُلِّي بها الحائط ابتداء من عصر متأخّر جداً هو القرن الثاني عشر الميلادي وما بعده، وأساس السُور المطمور تحت سطح الأرض عبارة عن ١٩ سطراً من الحجارة المستطيلة الضخمة، ويمكن رؤية جزء من هذا الأساس من الكهف الملاصق للحائط من جهة الشمال، أمّا بقية السور من هذه الجهة الغربية فقد اندثرت إلّا بعض النتوءات التي تبرز من مسافة لأخرى، وهناك ١٢ متراً من الضلع الجنوبي للسور ما تزال بارزة، وهي بقية العقد المقوّس الذي كانت فوقه القنطرة من جبل صهيون إلى الهيكل، والتقاليد اليهودية لا ترى البكاء سُنّة عند هذا الجزء، ممّا يؤكد أنّ الأصل في هذا البكاء إنّما كان على معبد لا مملكة، وطلباً للمغفرة من الله لا للعون من الولايات المتّحدة ـ ومع الزمن غلبت دموع التماسيح دموع الأتقياء.

وإذا كان المبكى أثراً يهودياً يرويه اليهود بدموعهم، فهناك قبر في الجنوب لحبر من أحبار اليهود الكبار هو الرِّبِّي كلونيموس التلمودي يرجمه اليهود بالحجارة تنفيذاً لوصيّته. وتقول أسطورته: (إنّ طفلاً مسيحياً وجد قتيلاً، واتّهم المسيحيون اليهود بقتله لأخذ دمه والاستعانة به في طقوس خبز الفصح حسب الإشاعة التي تتهمهم بعجن هذا الخبز بدم إنسان غير يهودي فجاء الحاخام كلونيموس وقرأ ودعا على الجثّة الهامدة، فبعث الصبي حياً بإذن الله، ونطق باسم قاتله وإذا به مسيحي، فندم كلونيموس على معجزته التي قام بها لمن ليسوا أهلاً لها في نظره، وكتب في وصيَّته أنّه يريد أن يعاقب نفسه على ذلك بأن يمنع من وضع شاهد باسمه على قبره، وأن يرجمه من يمر بقبره لمدة مائة سنة، وإكراماً للرجل فبعض النّاس يرجمه إلى اليوم).

القدس الشريف

ظلّت «إيليا كابيتولينا» محرّمة على اليهود إلا سحابة نهار في السنة يذرفون فيها الدموع على حائط المبكى حتى ظهر الإسلام، واستولت جيوش عمر بن الخطاب على القدس سنة ٦٣٧ ميلادية بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة عامر بن الجراح. وفي سنة ٦٣٧، والجيش العربي يطوّق المدينة ولا يدخلها في انتظار قدوم الخليفة، كان زعماء المسيحيين في داخل المدينة ينتظرون أيضاً خليفة المسلمين، ومعهم مشروع معاهدة تقضي بكل ما يريده العرب بشرط الإبقاء على الحرية الدينية للمسيحيين، واحترام المشاهد المسيحية المقدسة في البلد، واستمرار القرار الروماني القديم بمنع اليهود من النزول بالمدينة. وقَبِل عمر الشروط كلّها إلّا الشرط الأخير، معتذراً بأن القرآن قد حدَّد ما لأهل الكتاب وما عليهم، وليس فيه شيء يسمح بهذا، ولكنه تعهّد لمسيحيي القدس بألا يدخل أحد من اليهود إلى مقدساتهم أو يسكن في حاراتهم. ثمّ أراد أن يؤمن للحامية العربية مكاناً تعسكر فيه بالقدس فوجد أنّ سفح «صهيون» قد صار قذراً جداً ـ وقد أشرنا إلى أنّ وادي

القمامات كان يلاصقه منذ أقدم العصور ـ فصعد إلى الهضبة التي كان اليهود يسمُّونها جبل «موريا» واختط مسجداً بجانب الصخرة الشريفة، التي كان النبي محمد إبّان حياته قد أسري به إليها، فصلّى عندها، ودعا القرآن المكان باسم «المسجد الأقصى»، ومن ثم عرج به في القصة المعروفة المذكورة في القرآن.

لم يجرؤ اليهود، طوال أيام الخلفاء الراشدين وأوائل خلفاء الدولة الأموية، على الاستيطان بالقدس، ثم سُمح لهم بذلك في أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي بنى المسجدالجامع وبنى قبّة الصخرة سنة ٦٨٨، وكان في فناء الحرم على أيامه عشرة من اليهود يقومون بأعمال الكنس والنظافة نظير إعفائهم من الجزية، ذكر ذلك «تاريخ مجير الدين» المخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس.

وفي سنة ٧٠٥ تولّى سليمان بن عبد الملك بن مروان، فترك في دمشق أخاه الأصغر وحضر إلى القدس وهو ينوي أن يجعلها عاصمة للخلافة الإسلامية ثم عدل، وذكر مجير الدين في تاريخه أنّ المكلفين على عهده بإنارة المسجد الأقصى كانوا من الخدم اليهود، إلى أن تولّى الخليفة عمر بن عبد العزيز (٧١٠ ـ ٧٢٠) ففصل اليهود من هذه الأعمال وجعل خدم الحرم جميعاً من المسلمين.

وفي سنة ٩٦٩ سقطت سوريا وفلسطين تحت حكم الخلافة الفاطمية بالقاهرة،واستولوا على القدس في عهد المعزّ لدين اللّه الذي كان مشهوراً بعطفه الشديد على الأقلّيات من أهل الكتاب وخصوصاً اليهود. فازدهرت في أيامه الطائفة اليهودية، ولكن حفيده الحاكم بأمر الله (سنة ١٠١٠)، قسا على المسيحيّين واليهود وهدم بعض الأبنية المعظمة عندهم، حتى أنّه أراد ذات مرّة أن يهدم كنيسة القيامة كما يروي مجير الدين في كتابه في التاريخ.

وفي أواخر يوليه سنة ١٠٩٩ دخل الصليبيون القدس لأوّل مرّة بقيادة

الفرنسي «جوفروا» وأبادوا جميع المسلمين واليهود في المدينـة المقدّسة وأحرقوا ديارهم ومقدّساتهم، وحرموا عليهم دخولها، وإن كان الـرحالـة اليهودي الأندلسي «بنيامين التطيلي» يذكر في رحلته التي زار فيها القدس سنة ١١٧٠ أنّه وجد فيها قليلاً من اليهود يقيمون تحت «برج داود» ويشتغلون صبّاغين بتصريح من الحاكم الصليبي لقاء مال يدفعونه له.

ويذكر رحّالة يهودي آخر من الأندلس أيضاً هو يهودا الحريزي الأديب أنه زار القدس بعد أن استردّها صلاح الدين الدين الأيوبـي من الصليبيين (يوم الجمعة ٢ أكتوبر سنة ١١٨٧) فسمع عنه أنّه يكـرم اليهود ويحسن معاملتهم ويشجعهم على الإقامة فيها.

وظلّ الأمر يتأرجح عنفاً وتسامحاً مع اليهود بين الصليبيين والمسلمين بحسب الظروف إلى أن خلصت فلسطين للماليك، وكان اليهود قد كثروا في القدس، وبدأت بينهم تنظيمات سرّية تفرض عليهم الإتاوات لصالح الطائفة، وتوقع العقوبة ـ سراً ـ بمن يرفض دفع الإتاوة.

حدث مرّة في حكم السلطان الملك الأشرف قايتباي، من المماليك البرجية (١٤٦٨ ـ ١٤٩٦ م)، أن أحد اليهود رفض دفع هذه الإتاوة، فوقع تحت التهديد والإرهاب، حتى أنه آثر الدخول في الإسلام، واغتاظت أمّه من قسوة زعماء الطائفة عليه، فأسلمت هي كذلك، وأوقفت بيتها الواقع في الحي اليهودي ليكون مسجداً للمسلمين، وكان مجـاوراً للمعبد. فلجـأ المسلمون في المدينة سنة ١٤٧٥ إلى المحكمة الشرعية بالقدس يطلبون إجلاء اليهود من مجـاورة المسجد الجـديد وإزالـة معبدهم. وأصـدرت المحكمة حكمها في صالحهم، ولكن تبيّن أن الحكم لا بد أن يصدق عليه من المحكمة العليا في القاهرة، وفي انتظار التصديق قام المسلمون فعلاً ببعض أعمال الهدم والإزالة، ولكن السلطات العليا بالقاهرة نقضت حكم المحكمة الشرعية بالقدس، وأفتت بأنّه لا ضير بأن يقوم مسجد للإسلام في حارة اليهود وبجـوار معبدهم، وأمـرت بإعـادة بناء مـا تهدّم على نفقـة

المسلمين، ذكر هذا أحد مشاهير أحبار اليهود الذين عاصروا تلك الأحداث، وهو الرِّبّي عوبديا دي برطينورو في رسالة له من القدس، وكان معظم اليهود يسكنون في حي خاص بهم على جبل صهيون بمعزل عن المسجد الأقصى وكنيسة القيامة.

في نفس هذ القرن الخامس عشر الميلادي كان العرب قد طردوا من الأندلس، وكان الإسلام قد دخل أوربا من الشرق مع السلطان العثماني محمد الثاني - الفاتح - الذي استولى على القسطنطينية، ووضع بذلك نهاية للامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية).

وطرد العرب من الأندلس جرّ معه جالية يهودية ضخمة كانت تعيش آمنة في كنفهم، وهي التي قامت بخدمة اللّغة العبرية والدين الإسرائيلي والحفاظ عليهما وتعميق دراستهما. ووفد من هذه الجالية جمهور كبير للاستقرار في القدس، كما بدأ يفد من بيزنطة أيضاً عدد من اليهود لا يستهان به.

وفي سنة ١٥١٦ انتهى حكم المماليك عندما سقطت القدس في يد الجيش التركي في عهد السلطان سليم الأوّل العثماني ومن بعدها مصر أيضاً، وبعد ذلك مباشرة كان السلطان سليمان القانوني العثماني ١٥٢٠ - ١٥٦٦ هو الذي يحكم الامبراطورية الإسلامية الشاسعة وقد أمر بإعادة بناء أسوار القدس الشريف على النحو الذي نعرفه الآن.

وبهذا السور الحالي سبعة أبواب:

١ - باب الخليل غرباً وهو الذي يسمّونه أيضاً باب يافا، وكان يسمّى قديماً باب إبراهيم.

٢ - باب النبيّ داود جنوباً، واسمه باب صهيون، وهو على جبل صهيون ملاصق لقبور ملوك آل داود.

٣ - باب المغاربة جنوباً من منخفض الجبانه «التيروبويون» ويسمّى أيضاً الباب الصغير لصغر حجمه نسبيّاً، ومن الأثريين من يزعم أنّه باب

القمامة القديم، والراجح أن باب القمامة كان إلى الجنوب أكثر، في أسفل الجبل ومن هذا الباب تخرج جنازات الموتى لتدفن على جبل الزيتون.

٤ ـ باب السباع شرقاً، والعرب يسمّونه باب ساباط والظاهر أن الكلمة تحريف «يهوشا فاط»، واليهود كانوا يسمّونه قديماً باب «يهوشا فاط» لأنّه يطل على الوادي المسمّى بهذا الاسم.

٥ ـ باب الزاهرة، شمالاً، وهو باب هيرودس، وربما كان في موضع «باب ساحة الجيش» القديم.

٦ ـ باب العمود، في الشمال الغربي، ويسمّونه باب دمشق، واليهود تسميه باب شكيم «نابلس».

٧ ـ الباب الجديد، غربي باب العمود، ويسمّى باب عبد الحميد وهو أقرب الأبواب إلى كنيسة القيامة.

هذا عدا أبواب وبوابات داخل القدس نفسها مثل «باب حطة» الذي يصل إليه الداخل إلى القدس من باب الزاهرة، وباب السلسلة القريب من المسجد الأقصى.

* * *

خلاصة موجزة لتاريخ القدس

وبعد: فهذه جولة في تاريخ القدس تتبعنا فيها اليهود خاصة، فوجدنا أنّ المدينة كانت مقدّسة قبل داود بألف سنة، من أيام الملك الفلسطيني ملكيصدق، لدرجة أن سيدنا إبراهيم التمس منه الطعام والشراب، وأن يباركه ببركة الله العليّ، ووجدنا أن فترة أواخر حكم داود وحكم سليمان وهي لا تعدو كلها ثلاثاً وسبعين سنة: **٣٣** لداود و **٤٠** لسليمان هي الفترة الوحيدة التي كانت المدينة والهيكل فيها مركزاً وعاصمة لليهود بقوة السلاح أولاً وبالمسالمة والدبلوماسية ثانياً، ووجدنا أنّه بمجرّد موت سليمان تقلّصت سلطة

القدس بأكثر من النصف، إذ كانت دولة إسرائيل في الشمال لا تعترف لا بداود ولا بسليمان ولا بخلفائهما، لا في الدين ولا في السياسة. حتى جاء الآشوريون والبابليون ووضعوا حداً لكل هذا.

ومنذ ذاك الوقت كانت أورشليم رمزاً، ولم يكن وجود اليهود فيها وجوداً مستقلاً، لا سياسياً ولا اقتصادياً ولا دولياً، وإنما كانت لهم فيها زوايا ومعابد لطقوسهم، وكان يأتي إليها حجاجهم كما يذهب المصري أو المغربي أو التركي للحج في مكة المكرمة. ووجدنا أنّ العرب عندما دخلوا القدس الشريف بعد الإسلام كانت المدينة خالية من اليهود منذ خمسمائة سنة أو أكثر ومن كل أثر سياسي أو ديني لهم إلاّ «مسمار جحا» الذي هو حائط المبكى، وعلى مدى أكثر من ثلاثة عشر قرناً، كانت تحت الإدارة الإسلامية «مدينة الله» بحق يجد فيها المسلم والمسيحي واليهودي صفاء النفس والسكينة الروحانية اللازمة للتأمل والعبادة.

ألف سنة قبل داود، وألف وخمسمائة سنة بعد دواد، والقدس مدينة الله، بل داود نفسه لم يكن يسمّيها إلاّ مدينة الله، واليهود يعرفون ذلك جيداً، ويعرفون أن التلمود كان يعتبرها «مدينة مملوكة لله»، ولذلك حرمت شريعته أن يمتلك فيها الإنسان بيتاً أو أرضاً أو بستاناً، أو أن يسكن أحداً في بيته بأجر، ولكنهم عند اللزوم كثيراً ما يسكتون جميع الأصوات حتى صوت داود وسليمان وأصوات الأنبياء، وحتى صوت التلمود.

هيكل سليمان وهياكل أخرى

كيف كان الهيكل الذي بناه سليمان؟ وكيف تمّ بناؤه؟ هل بقي منه شيء غير تلك الشطحات الأدبية الأسطورية التي يغص بها الأدب اليهودي، الديني منه والعلماني؟ هل قامت على أنقاضه هياكل أخرى؟.

أسئلة هامّة تستوقفنا كما استوقفت الباحثين منذ أقدم العصور. وسنقف عندها علّنا نجد بصيصاً من نور، يساعدنا على تبيّن بعض المعالم، وعلى تصوّر البناء في هيئته الواقعية البعيدة عن تخيّلات الحنين اليهودي الحالم، وعن التلخيص العابر الخاطف الذي ذكرنا مثالاً له من كتابة اليهودي الأمريكي المعاصر «لويس براون».

جاء في الكتاب المقدس أن داود كان يريد أن يبني هيكلاً للرب في أورشليم، ولكن النبي «ناتان» أبلغه ـ من لدن الرب ـ بأن يترك هذا المشروع لابنه سليمان (صمويل الثاني ٧). لماذا؟ إنّ داود نفسه ليشرح سبب ذلك لابنه سليمان شرحاً له دلالته ومغزاه، حتى في العصر الحديث. وليسمع كهنة الصهيونية التوسعية في فلسطين الآن (أخبار الأيام الأول ـ ٢٢): «وقال داود لسليمان: يا بني، كان في خاطري أن أبني بيتاً لاسم الرب إلهي، فكان إليّ كلام الرب قائلاً: قد سفكت دماً كثيراً، وقمت بحروب كبيرة فلن تبني بيتاً لاسمي، لأنك سفكتَ دماء كثيرة أمامي على الأرض. وها هو ذا ابنٌ يولد لك، يكون رجل سلم، أسلمه من جميع أعدائه الذين من حوله، إذ سيكون

اسمه سليمان، وسأعطي سلاماً وهدوءاً لبني إسرائيل في أيامه وهو يبني لاسمي بيتاً».

ومع ذلك فإن داود أراد، قبل موته، أن يسجل معاونته الفعالة لابنه في إقامة الهيكل، فأخذ يجهّز المواد اللازمة للبناء، وكان اليهود في عصره ما يزالون في بداوة بدائية يندر فيهم من يعرف أصول حرفة أو صناعة أو علم من علوم الدنيا، وسنرى أن الاعتماد على الفنيين الأجانب كان الحل الوحيد الممكن أمام داود وسليمان حتى يرتفع هيكل الرب. جاء في سفر (أخبار الأيام الأول ـ ٢٢): «وأمر داود بجمع الأجانب الذين في أرض إسرائيل، فاتخذ نحاتين لنحت حجارة مربعة لبناء بيت الله. وهيأ داود حديداً كثيراً للمسامير لمصاريع الأبواب والأوصال، ونحاساً كثيراً بلا وزن وخشب أرز لا يحصى، لأن الصيدونيين والصوريين أتوا بخشب أرز كثير لداود» ثم أضاف داود وهو يخاطب ابنه في نفس هذا الإصحاح قائلاً: «وها أنذا في مذلّتي قد جهزت لبيت الرب مائة ألف وزنة من الذهب وألف ألف وزنة من الفضة ومن النحاس والحديد ما لا وزن له لكثرته، وجهزت أخشاباً وحجارة وأنت تزيد عليها. وعندك صنّاع كثيرون للعمل: نحّاتون، ونقّاشو حجر وخشب، وكل أستاذ في كل حرفة».

هذه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وهذا الخشب والحديد والنّحاس الذي يفوق الوزن والحصر، وهؤلاء العمّال المهرة والأساتذة الخبراء في كل حرفة، قد أورثها داود لسليمان قبل أن يترك الدنيا ومن فيها، فلننظر ماذا كان من أمر «بيت الرب» وبنائه.

أمّا مكان البناء فالإجماع منعقد، بناء على عنعنات شفوية يقال إنّها متّصلة متواترة، على أنّه الهضبة المسطحة التي تتوّج جبل «موريا» ـ المكان الذي وجد فيه إبراهيم، قبل سليمان بألف سنة، الرجل الفلسطيني الأصيل «ملكيصدق»، ملك أورشليم، يعبد الله العليّ، ويقوم بقرى الضيوف فيقدم لإبراهيم الخبر والنبيذ، ثم يباركه «باسم الله العليّ» أيضاً.

ظلّ هذا المكان فلسطينياً قحاً، في أيدي اليبوسيين، رغم الضغط الإسرائيلي المتكرّر حتى جاء داود، فوجده ملكاً لفلاح فلسطيني يبوسي اسمه «أرونا» أو «أورنان»، وقد جعله بيدراً، فاشتراه منه، والظاهر أنّ اليبوسيين كانوا قد تعوّدوا من رذالات النهب والاغتصاب الإسرائيلي ما جعل «أرونا» يندهش عندما وجد داود يدفع له ثمن البيدر، وكان قد عرض عليه ـ اتقاء لشره ـ أن يأخذه بلا مقابل، «فقال الملك لأرونا: لا، بل أشتري منك بثمن، فلا أحرق القرابين للرب إلّهي مجّاناً» (صمويل الثاني ٢٤).

أمّا عدد الصنّاع الذين اجتمعوا في أورشليم لينفّذوا لسليمان المشروع الذي أوصى به أبوه داود فضخم جداً يزيد على مائة وخمسين ألف عامل، والهيكل بناء صغير حسب أوصافه التي وردت إلينا (طوله ٣٢ متراً، وعرضه ١١ متراً، وارتفاعه ١٦٧ متراً بالتقريب) مما يدعونا إلى التساؤل: هل كانت كل مواد البناء التي أعدّها داود، وهذا العدد الضخم من العمال والفنيين مخصصة للهيكل وحده، أم أنّ الأمر على ما يذكر «لويس براون» من أن الهيكل لم يظفر من ذلك إلّا بالقدر الأقل على حين كان الجانب الأكبر قد خصّص لمبانٍ أخرى أقل اتصالاً بتمجيد «الرب»، منها القصر الملكي لسليمان، وقصر زوجته ابنة فرعون، والصروح البديعة، والفيلات الأنيقة، التي أعدّها لنسائه الكثيرات جداً، والأبنية الحكومية المختلفة، وحتى المعابد الوثنية التي أُقيمت خصّيصاً لمن رفض التهوّد من النساء الأجنبيات اللاتي أحبهن سليمان (الملوك الأول ١١).

مهما يكن من شيء فإنّ العمال الذين جاءوا لتنفيذ المشروع كان معظمهم من الأجانب كما قلنا، وينقسمون حسب ما جاء في الإصحاح الخامس من سفر الملوك الأول إلى الفئات الآتية:

١ ـ ٣٠,٠٠٠ عامل لقطع الأخشاب يكونون ثلاث ترحيلات كل منها عشرة آلاف عامل، تذهب إلى لبنان فتعمل شهراً ثم تعود إلى فلسطين فتمكث شهرين هما مدة الترحيلتين الأخريين، بحيث تعمل كل واحدة من

التراحيل الثلاث أربعة أشهر على أربع فترات في السنة. وكان الخشب المقطوع يأتي من لبنان بحراً إلى يافا، والمذكور منه نوعان هما الأرز والسرو، وورد في سفر (أخبار الأيام الثاني ٢/٨) اسم غامض لنوع ثالث، ترجمه المترجمون بالصندل، ومعروف أنّ الصندل لا ينبت في لبنان ، ولعل المقصود بالكلمة العبرية ـ وهي من غريب اللّغة ـ خشب الساج وهو شجر يميل إلى الحمرة ويستعمل في النجارة، (وقد اعتمدنا في هذا التصحيح على المعجم العبري العربي «جامع الألفاظ» تأليف أبي سليمان داود بن إبراهيم الفاسي الذي يرجع إلى حوالى سنة ٩٥٠ م).

٢ ـ ٧٠,٠٠٠ حمّال.

٣ ـ ٨٠,٠٠٠ حجّار، يهيئون حجارة البناء في «محاجر سليمان» في الطرف الشمالي من جبل الزيتون، إلى أقصى الشرق من مدينة القدس.

٤ ـ ٣,٣٠٠ رؤساء تشغيل (عمال فنيون، «أسطوات»، ملاحظون). وعددهم في سفر أخبار الأيام الثاني، الإصحاح الثاني، مختلف إذ هو ٣,٦٠٠.

٥ ـ ٥٥٠ بنّاؤون من صور وجبيل، وهما المدينتان الفينيقيّتان المشهورتان في العصور القديمة بإتقان بناء الحصون والقلاع.

وفي ربيع السنة الرابعة من جلوس سليمان على العرش وضع الحجر الأساسي للمشروع بعد خمسمائة سنة من خروج بني إسرائيل من مصر مع موسى، وتمّ البناء بعد سبع سنين، في خريف السنة الحادية عشرة من ملك سليمان أيضاً.

يقول المؤرخ اليهودي اليوناني يوسفوس (تاريخ اليهود، الجزء الثامن، الفصل الثالث): (إن سليمان قد وصل بأساس الهيكل إلى عمق سحيق، وكان هذا الأساس يتكون من مكعبات من حجر شديد الصلابة، يمكن أن يتحمل بعد إرسائه في أعماق الأرض كل ثقل المبني القائم عليه، والذي

يزيد من ثقله كل التصميم الزخرفي الذي أعدّه له سليمان، وهو تصميم يزن مثل وزن الهيكل نفسه. وكانت حجارة الأساس هذه بيضاء، وكان طول الأساس ستين ذراعاً (٣١,٥ متر) وعرضه عشرين ذراعاً (١٠,٥ متر)، وهذه هي أبعاد الهيكل الظاهر فوق سطح الأرض حسب رواية الكتاب المقدّس، أمّا عمق الأساس فكان ستين ذراعاً أيضاً (٣١,٥ متر) مفهوم كلام يوسفوس أن الكتلة المحدّدة بهذه الأبعاد كانت كلها مصمتة، مملوءة بالمكعبات الحجرية الضخمة، ولم تكن مجرّد «سياج» يحيط بالأرض.

ويرجح كثير من الأثريين وفي مقدّمتهم الأثري الفرنسي «دي سولسي» في كتابه «تاريخ الفن اليهودي» أن الهيكل الذي بناه سليمان كان في داخل سور يحيط بكل جبل الهيكل، بدليل أنّ الهيكل الذي بناه اليهود بعد عودتهم من السبي البابلي في نفس المكان، وبعد سليمان بنحو خمسمائة سنة أخرى، كان يحيط به سور أيضاً، وكذلك الهيكل الذي عمّره هيرودس بعد ذلك بخمسمائة سنة أخرى، ثم الحرم الإسلامي الشريف الذي قام أخيراً، في نفس المنطقة التي كان «ملكيصدق» يدعو فيها باسم الله العليّ في زمن إبراهيم. ويبدو أنّ السُور الذي كان يحيط بمنطقة الهيكل على أيام سليمان، كان مربعاً طول ضلعه مائة وثمانون متراً (فتكون مساحة ما يحيط به السُور نحو ثمانية أفدنة إلّا ربعاً). وبهذه المناسبة يذكر الأثري الفرنسي «دي سولسي» مقاييس الحرم الإسلامي الشريف في نفس المنطقة وفي العصر الحديث كما قاسها هو بنفسه، وهي: الضلع الشرقي لسُور الحرم وطوله ٣٨٤ متراً، والضلع الجنوبي طوله ٢٢٥ متراً، ثم يمتد الضلع الغربي بزاوية منفرجة وفي خط غير مستقيم، بحيث يكون الضلع الشمالي من السُور أطول بكثير من مقابله الجنوبي. وينبني على ما ذكره «دي سولسي» أن تكون مساحة الحرم الشريف أكثر بكثير من ضعف مساحة جبل الهيكل داخل أسوار سليمان، أو نحميا، أو هيرودس.

هناك أيضاً أمر يستحق الانتباه، وهو أن الحرم الإسلامي الشريف

مستطيل، واتجاهه من الشمال إلى الجنوب (في اتجاه القبلة بمكّة المكرمة)، أما معبد سليمان فهو مستطيل لكن اتجاهه من الغرب إلى الشرق (نحو الشمس) وهو الاتجاه العام في المعابد القديمة في بابل أو مصر أو غيرهما من أقطار الشرق الأدنى والأوسط. وإذن فلا يمكن التسليم بسذاجة برأي من يدعون أنّ الحرم يقوم تماماً على ما كان سابقاً يسمّى هيكل سليمان، حتى لو سلمنا أنّ الهيكل كان في هذا الركن بالذات من الجبل، وهذا لا دليل عليه إلّا العنعنات التي اتّخذت في نفوس البعض منزلة مقدّسة لتكرارها عبر الأجيال. والذي يستفاد من أوثق النصوص هو أن الهيكل كان يتضمّن التفاصيل الآتية:

١ ـ قدس الأقداس:

غرفة مكعّبة أبعادها طولاً وعرضاً وارتفاعاً ١٠,٥ متر. وفيها ستار يقسمها قسمين، ففي القسم الداخلي منها تابوت العهد، وهو صندوق تحفظ فيه نسخة من توراة مخطوطة على جلد أو رقّ، عن يمينها وشمالها تمثالان للكروبين يملآن بقية الفراغ. وأصل الكروبين في عقيدة اليهود أنّهما من الملائكة، وكان اثنان منهما يحرسان أبواب الجنة بعد أن طرد منها آدم وحوّاء، ثم انتقلت القصّة في الفولكلور الشرقي القديم، في بابل وأشور وبلاد الحيثيين وإيران وفينيقيا وغيرها فأصبح «الكروب» نوعاً من أبي الهول المجنح يحرس البناء الذي يوضع فيه، وكان شكل التمثالين الحارسين يتّخذ أسلوب الطراز الفني للأمة والعصر، وأغلب الظن أنّه كان في هيكل سليمان أشبه بأمثاله في المعابد الفينيقية، أي بأسلوب وسط بين الفن البابلي الأشوري في العراق والفن الفرعوني في مصر. وربما كان في هيكل هيرودس قد نفذ بشكل أقرب إلى الفن التجريدي، دون تفاصيل واقعية احتراماً لنهي التوراة عن اتّخاذ التماثيل المنحوتة، فكان «الكروب» أو الملاك الحارس يظهر بشكل كتلة وسطى يحف بها جناحان مدببان، ولعله من هنا جاء الاعتقاد الشعبي عند الرومان في أن اليهود يعبدون في قدس الأقداس

صنماً على شكل رأس حمار، إذ بدا لهم جسم «الكروب» بين الجناحين كرأس حمار بين الأذنين الطويلتين، إذا وضعنا في الحسبان الفرق الشاسع بين ثقل الفن اليهودي وتخلّفه، وفخامة الفن الروماني ودقّته وتفوّقه.

وأمّا النصف المفتوح من قدس الأقداس فيحتوي في الوسط على المذبح الذهبي للقرابين، وإلى يساره منضدة تحمل الشمعدان السباعي الذي يضاء في أثناء إقامة الطقوس. ويقال إنه كان في هيكل سليمان يضاء باستمرار لا ينطفىء أبداً، وإلى يمين المذبح الذهبي منضدة لخبز التقدمة الذي يدخل في الطقوس اليهودية أيضاً.

٢ ـ البهو المقدّس:

وهو المكان الخاص باجتماع الناس للعبادة وإقامة الشعائر، ويفصله عن قدس الأقداس باب، وعلى جانبيه صفّت مناضد لوضع المسارج والشموع، وهو مربع طول ضلعه عشرة أمتار ونصف.

٣ ـ قاعة المدخل:

وهي أول مكان يلي الباب، وليس بها أثاث ديني معين، وهي التي يليها من الخارج باب الهيكل، وكان عليه عمودان أحدهما عن اليمين باسم «ياكين» أحد أحفاد يعقوب من سبط شمعون، والثاني عن اليسار باسم «بوعز»، أحد أبطال سبط يهوذا القدماء. وعلى جانبي هذا الصحن الخارجي المكشوف الذي يقوم فيه العمودان أحواض لغسل الذبائح، ومذبح في الهواء الطلق لتصعيد القرابين التي تحرق بالنار من هذه الذبائح، يصعد إليه بسلّم من عدّة درجات وفي زاويتي المبنى سُلّمان يوصلان إلى الطوابق العليا التي بها غرف الكهنة ومرافق الهيكل. وعن يسار المذبح الخارجي «بحر النحاس» وهو حوض نحاسي كبير يحمله اثنا عشر ثوراً من البرنز.

وهكذا يكون طول المبنى كله ٣١,٥ متراً وعرضه ١٠,٥ متراً، وارتفاعه فيما عدا قدس الأقداس ١٥,٧٥ متراً، بينما قدس الأقداس سقفه منخفض نسبياً فارتفاعه كما قلنا ١٠,٥ متراً.

وكان من الداخل مغطّى بالنقوش المنحوتة في الحجر والخشب من أزهار ونباتات وكروبين. وكما يقول لويس براون: لم يكن المعبد لا فخماً ولا ضخماً إلّا في أعين اليهود البسطاء الذين لم يكونوا قد وصلوا من الحضارة إلى درجة يطمحون معها في إنجازات معمارية كالتي كانت سائدة في نفس العصر في مصر الفرعونية أو بابل وأشور أو إيران أو الهند.

وقد بقي هذا الهيكل حتى خرّبه بختنصر، فمحا أثره محواً تاماً في القرن السادس قبل الميلاد. وربّما دخلت حجارة من أنقاضه في أبنية متأخرة، ظنّ بعض الباحثين، بحسن نية أو للمغالطة وتشويه التاريخ، أنّها بقايا من إنجازات سليمان.

الهيكل الثاني

كان همّ العائدين من السبي الذي دام سبعين سنة أن يبسطوا سلطانهم مرّة أخرى على فلسطين، وأن تقوم لهم دولة، تحت وصاية «قورش» امبراطور إيران في القرن الخامس قبل الميلاد، وأن تكون هذه الدولة قنطرة للتوسّع العسكري الفارسي في الشرق الأوسط، الذي انتهى باستيلاء قمبيز على مصر نفسها. وإذا كان السادة الفرس لم يعطوا اليهود «وطناً قومياً» إلّا بشروط معيّنة، خلاصتها الولاء التام والتبعية المطلقة لسياستهم بخيرها وشرّها، فإنّ اليهود أرادوا أن يعيدوا بناء أورشليم، وتشييد هيكل سليمان، حتى تكون هذه الواجهة أمام الناس تعمية على التبعية التي رضخوا لها صاغرين. ولقد حاولوا جاهدين أن يبنوا الهيكل الثاني على نفس المخطط الذي بُني عليه الهيكل الأول، هيكل سليمان، وانتهى البناء في عهد دارا الأول الفارسي.

كان الذين عادوا من السبي نحو أربعين ألف يهودي أو يزيدون قليلاً، وكان على رأسهم «يوشع بن يوصدق» و«زروبابل بن شلتئيل»، فبدآ ببناء مذبح للمُحْرَقات في الهواء الطلق على جبل الهيكل الذي كان وقتها خراباً وفي اليوم الأول من الشهر السابع من عودة اليهود من بابل إلى فلسطين كانت

الطقوس تقام أمام هذا المذبح، ثم لما لحق «عزرا» و«نحميا» بالعائدين إلى فلسطين من اليهود، بدأت أعمال البناء والتحصين وإقامة أسوار أورشليم تتخذ شكل الإنجاز النشيط، رغم بعض العقبات التي كانت تقيمها الحكومة الفارسية من حين لآخر، ورغم مقاومة غير منظمة قام بها أمراء حوران وعمان والجزيرة العربية والفلسطينيين المتمركزين في أشدود (سفر نحميا الإصحاح الرابع وما بعده).

وهذا الهيكل الثاني أيضاً انتهى أمره بالدمار التام بعد إقامته بخمسة قرون على يد تيتوس الروماني. يقول يوسفوس في كتابه «حرب اليهود» (الجزء الخامس، الفصل الرابع، الفقرة الثالثة): (وكان تيتوس كلّما وجد الجنود الرومان قد فرغوا من قتل جميع الناس في المنطقة التي يسيطرون عليها، أمرهم أن يخرّبوا أورشليم ومعبدها وأن يقلبوها ظهراً على عقب، فيما عدا الأبراج العالية التي كان يحرص على بقائها كشواهد على ما قام به من التدمير). وهكذا امّحت معالم هذا الهيكل أيضاً إلّا بقايا نادرة، مع ملاحظة أنّه عند وصول تيتوس كان هيرودس، قبله بنحو قرن من الزمان، قد أدخل تعديلات وتغييرات على الهيكل الثاني، وعلى تخطيط المدينة نفسها، كانت وحدها ـ وبدون هدم أو تدمير ـ كفيلة بجعل الوصول إلى التخطيط المعماري المبدئي للهيكل الثاني أمراً يكاد مستحيلاً، بالرغم من كل المحاولات التي أراد الباحثون اليهود أن يخرجوا منها بمخطط معماري دقيق مستمد من عنعنات التلمود، ومنهم الأثري اليهودي «أيزنشتاين» مثلاً. وأما ما جاء من جعل الصخرة الشريفة هي نواة قدس الأقداس فقد بيّنّا الشكوك القوية التي تحوم حول هذا، وأولها ما ذكرناه من الاختلاف الشديد بين صخرة قدس الأقداس وصخرة المعراج النبوي المبارك من حيث الحجم والارتفاع عن الأرض.

وانطلاقاً من هذا المخطط التلمودي، ومع الوصف الذي أورده المؤرخ يوسفوس وغيره، نجدنا مضطرين إلى أن نسجل مرحلة ثالثة متطورة جداً

من الهندسة الدينية اليهودية في حالة معبد أورشليم إبّان ظهور المسيح.

هيكل هيرودس

وقد استفاد بعمق من العمارة اليونانية الرومانية، وكادت تختفي منه الملامح الدالة على أصله اليهودي تماماً، وهذا الهيكل هو الذي دمّره تيتوس ومحاه من الوجود سنة ٧٠ ميلادية، وحائط المبكى كان على الأرجح جزءاً من جداره الغربي. واليهود يحرصون على تسميته حتى الآن «الجدار الغربي».

هيكل جوبيتر كبير آلهة الرومان

على أثر الثورة التي قام بها في أورشليم ضد الحكم الروماني الزعيم اليهودي «بركوكبا» جاء الامبراطور هدريان (في أوائل القرن الثاني الميلادي) وأزال كل شيء يهودي في أورشليم حتى اسم المدينة كما قلنا، وعلى أنقاض الهيكل بنى معبداً رومانياً لكبير الآلهة «جوبيتر»، وأقام تمثالاً لهذا الإله وآخر للإلاهة فينوس، وجعل هذا الصرح على جبل أورشليم أشبه بمعبد الكابيتول الواقع على أحد جبال روما السبعة، ولذا أعطاه اسمه هو شخصياً «إيليوس» واسم «الكابيتول»، وحرم استعمال اسم أورشليم وأحلّ محلها الاسم الروماني الذي صنعه هو «إيليا كابيتولينا» ـ حتى أصبح اسم أورشليم لفظاً تاريخياً يطلق فقط على المدينة التي كانت في هذا المكان على عهد الملوك والأنبياء من بني إسرائيل، وظلّت المدينة تسمّى «إيليا» ولا يسكنها اليهود حتى الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، حيث كانت المنطقة الوثنية التي أنشأها هدريان قد خربت، وجاء ثاني الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب فأنشأ مسجداً بسيطاً لجنده، هو نواة الحرم الشريف والمسجد الأقصى، بعد أن كان الإسلام قد كرّس تلك البقعة المباركة، بوحي قرآني، وبمعجزة الإسراء والمعراج المحيِّرة للأذهان.

المقالة الثانية

حول تاريخ الأنبياء
عند بني إسرائيل

بقلم
م. ص. سيجال

ترجمه من العبرية وعلق عليه
الدكتور حسن ظاظا

كلمة للمترجم

كثيراً ما تتشابه المصطلحات لفظاً، بينما تختلف في مفهومها من منهج لمنهج، أو عقيدة لعقيدة، أو طائفة من البشر لطائفة أخرى، أو حقبة من الزمن لحقبة غيرها.

ومقارنة الأديان، وتاريخها، من أشد ألوان البحث تعرضاً لهذا الاتفاق في المصطلحات مع بقاء مدلولاتها متميزة في كل عصر وأمّة وعقيدة، وهي ظاهرة تؤدي كثيراً إلى الخلط في المفاهيم، وتضليل غير المحقِّق الحذر من الدراسين.

فالوحي مثلاً لفظة مشتركة بين أكثر الأديان، ومع ذلك فالمفهوم منها ليس واحداً في ذهن المسلم والمسيحي واليهودي والبوذي وغيرهم.

والقضاء والقدر لفظتان يستعملهما المسلمون من أهل سنة، ومعتزلة، وجبرية وغيرهم، ولكل منهم وراءها مع ذلك تحديد وتفسير وفهم يخالف بها من سواه.

حتى الرضوان الإلّهي لم يتّفق عليه النّاس، فنظرة الكاثوليكي إليه تخالف نظرة البروتستانتي، وللهنود فيه رأي آخر وكذلك لليهود وللمسلمين. وهكذا يجري الأمر في أكثر المصطلحات المشتركة لفظاً المختلفة مدلولاً، كالبعث، والنشور، والقيامة، والحساب، بل الموت نفسه لم يسلم من الخلاف في تفسيره بين شتى الملل والنحل.

وفي الصفحات التالية نقدّم صورة من فهم دين سماوي - في وضعه الحالي - لفكرة رئيسية في جميع الديانات هي فكرة النبوّة، حتى يقف القارىء العربي على مدى اتساع الفَرْق بين ما نتصوره نحن عن النبي والنبوة وما يتصوره اليهود.

والأستاذ م. ص. سيجال مؤلف هذا البحث من أبرز المفكّرين اليهود، وأكثرهم تبحّراً في دراسات التوراة، وأصول العقيدة والشريعة عندهم. وهو من يهود بولونيا الذين بدأوا حياتهم هناك بالدراسات الدينية المرسومة لتخريج الحاخامين الإسرائيليين، ثم أدركته الصهيونية فهاجر إلى فلسطين، وما زال يعكف على البحث والإنتاج حتى آلت إليه أستاذية دراسات العهد القديم في الجامعة العبرية، كما قام بتدريس العبرية في جامعات إنجلترا وأمريكا. واشتهر بكثير من المؤلفات نذكر منها، غير ما أشار إليه هو في مقاله هذا، كتاباً عن مناهج تفسير العهد القديم عند اليهود (بالعبرية)، وآخر في النحو العبري في عهد «المشنة» - وهي الشريعة الشفوية - (بالعبرية، ونشر بالإنجليزية والألمانية أيضاً)، وثالث في علم الصوتيات اللغوية التجريبي مطبقاً على اللغة العبرية (وقد نشر بالعبرية والإنجليزية أيضاً)، وله معجم عبري إنجليزي شائع مشهور، هذا عدا الكثير من المقالات والبحوث.

والبحث الذي نترجمه له اليوم من اللغة العبرية[1] من البحوث التي كان يعتزّ بها كثيراً، حتى إنه اشترك به في الكتاب التذكاري لبلوغ الحاخام «يوسف صبي هرتس» سن السبعين. ولعل هذا الأخير، من حيث الأهمية

---

(١) عنوان البحث بالعبرية هو: «لتولدوت هنبيئيم بيسرائيل» وقد ظهر في:

Essays in honour of the Very Rev. Dr. J. H. Hertz Chief Rabbi of the United Hebrew Congregations of the British Empire, on the occasion of his Serventieth Birthday, September 25, 1942 (5703).

I. Epstein, E. Levine and C. Roth.

(London, Edward Goldston).

والبحث منشور في القسم العبري من هذا الكتاب ص ١٠١ وما بعدها.

الروحية والسياسية، هو أبرز الشخصيات الكهنوتية عند اليهود في العصر الحديث، فقد كان يشغل منصب الحاخام الأكبر لبريطانيا وامبراطوريتها فيما وراء البحار في أثناء محاولة الصهيونية الاستقرار في فلسطين، وكان له دور رئيسي في الحصول على التصريح الباطل الظالم المسمّى في تاريخ المؤامرة الصهيونية الاستعمارية بوعد بلفور.

والمؤلف، في بحثه هذا، يهودي يتكلّم إلى يهود في أمر من أمور عقيدتهم الدينية وتطورها التاريخي والاجتماعي، وباللغة العبرية. لذلك فإننا نشعر ونحن نقرأ له بالبعد عن كل تحفظ أو «تقية» ربما كان قد آثرها لو أنه كتب بحثه هذا ليتجاوز الدائرة اليهودية الضيقة، فهو هنا يقرّر ما يراه بوضوح، ويصف النبوة في اعتقاده هو وأبناء دينه وصفاً علمياً دقيقاً مدعماً بالكثير من الأسانيد، مما يعطي لهذا البحث قيمة فريدة في دراسة تاريخ الأديان ومقارنتها.

وقد رأينا ـ في الترجمة العربية ـ أن نضع النصوص الكثيرة التي استعان بها المؤلف أمام القارىء برمّتها، بينما اكتفى هو عادة بالإشارة إلى مواضعها من الكتاب المقدّس، اطمئناناً منه إلى قارئه اليهودي، وهو غالباً من المهتمين بالدين، وفي المقدمة المهدى إليه البحث، وهو أكبر حاخام أكبر لليهود في العصر الحديث، سيتذكر الوقائع والآيات بمجرد الإشارة إلى مواضعها، بينما القارىء العربي غير مفترض فيه ذلك. وقد بذلنا الجهد في التحقق من الدقة في ترجمة الشواهد، وفي ترقيمها، وأثبتنا ذلك كحاشية على البحث حتى نحفظ له صورته التي ظهر بها في الأصل العبري، كما أثبتنا الحواشي القليلة التي علّق بها المؤلف على مواضع من بحثه ونسبناها كل مرّة إليه.

الدكتور حسن ظاظا

حَوْلَ تَارِيخِ الأَنبِيَاءِ
عند بني إسرائيل

أ ـ النبي والرائي

جاء في سفر صمويل، الإصحاح التاسع، الآية التاسعة: «قديماً في إسرائيل، هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله: هلم نذهب إلى الرائي، لأنّ النبي اليوم كان يدعى سابقاً الرائي». وهذه الآية ليست من صميم سياق القصة، ولكنها حاشية من يد ناسخ أراد أن يفسِّر لفظة «الرائي» التي وردت في الآيات ١١، ١٨، ١٩. وهي في مكانها الحالي تقطع الحوار بين الغلام وبين شاؤل(١)، وكان من الضروري أن تتأخّر إلى ما بعد الآية ١٠(٢).

---

(١) الحوار المشار إليه هنا هو: «ولما دخلا أرض صوف، قال شاؤل لغلامه الذي معه: تعال نرجع، لئلا يترك أبي الاتن ويهتم بنا. فقال له: هوذا رجل الله في هذه المدينة، والرجل مكرم، كل ما يقوله يصير، فلنذهب الآن إلى هناك، لعله يخبرنا عن طريقنا التي نسلك فيها، فقال شاؤل للغلام: فلنذهب، فماذا نقدّم للرجل، لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا، وليس من هدية نقدِّمها لرجل الله، ماذا معنا؟ فعاد الغلام وأجاب شاؤل وقال: إنه يوجد بيدي ربع مثقال فضة، فأعطيه لرجل الله، فيخبرنا عن طريقنا. قديماً في إسرائيل، هكذا كان يقول الرجل عند ذهابه ليسأل الله: هلم نذهب إلى الرائي، لأن النبي اليوم كان يدعى سابقاً الرائي. فقال شاؤل لغلامه: كلامك حسن، هلم نذهب، فذهبا إلى المدينة التي فيها رجل الله». (صمويل الأول ٩: ٥ ـ ١٠).

(٢) ارجع في هذا الموضوع إلى: م. ص. سيجال، تفسير علمي لسفر صمويل (باللغة العبرية) ط. وارسو سنة ٥٦٨٢ يهودية (تعليق المؤلف).

وقد جعل معظم الباحثين المحدثين من هذه الحاشية، التي يصعب تحديد زمنها، أساساً تقوم عليه كل أبحاثهم في تاريخ النبوة وتطوّرها عند بني إسرائيل[١]، واستنتجوا منها أنّ الاسم «نبي» مستحدث في حقبة من الحقب التي سبقت عصر الكاتب لهذه الحاشية، وأنّه قبل ذلك لم تكن التسمية «نبي» معروفة في إسرائيل، وأن «رجل الله» إنما كان يدعى ويوصف بلفظة «الرائي»، وصمويل نفسه كان يدعى، ويدعو نفسه «الرائي» لا «النبي» (نفس الإصحاح، الآيات ١١، ١٨، ١٩)[٢].

أمّا التحول الذي حدث في تسمية «رجل الله» من «الرائي» إلى «النبي» فقد حدث بعد صمويل، وكما يظهر عندما اتّسع شأن «رجال الله» وقوي في أيام الياس واليسع. وهذا التحول يحدد نهاية عصر وبداية آخر جديد في تاريخ النبوة. ففي هذا العصر الجديد تغيّرت صفات رجل الله ووظائفه، ومن ثم تغيّر اسمه كذلك من «رائي» إلى «النبي».

ذلك أنّ الرائي القديم كان يخبر بما سيكون، وينبيء بالغيب، حسب علامات معروفة تلقّى دلالاتها وتأويلاتها نقلاً عن سابقيه. كان حكيماً، وساحراً، وعرّافاً، مثل «الرائي»[٣] أو «الكاهن» العربي ومثل «بارو» وهو

---

(١) G. Hölscher; Die Profeten (1914), P. 125 ff.
R. Kittel; Geschichte des Volkes Israel (1922), II, P. 95 ff; Th. H. Robinson; A history of Israel, I. P. 179 f, A Lods; Israel (Paris, 1930), I, P. 513 ff; H. Junker; Prophet und Seher in Israel, PASSIM;

حزقيال كاوفمان، تاريخ العقيدة الإسرائيلية (بالعبرية) سنة ٥٦٩٨ يهودية، المجلّد الأول، ص ٧٠٩ وما بعدها (تعليق المؤلف).

(٢) الآيات المشار إليها هي:

١١ ـ وفيما هما صاعدان في مطلع المدينة، صادفا فتيات خارجات لاستقاء الماء، فقالا لهن: أهنا الرائي؟.

١٨ ـ فتقدّم شاؤل إلى صمويل في وسط الباب وقال: أطلب إليك، أخبرني أين بيت الرائي؟.

١٩ ـ فأجاب صمويل شاؤل وقال: أنا الرائي، اصعد أمامي إلى المرتفعة، فتأكلا معي اليوم ثم أطلقك صباحاً، وأخبرك بكل ما في قلبك.

(٣) المعروف من معتقدات العرب في الجاهلية أن «الرئـى» لم يكن من الإنس بل من الجن، =

«الرائي» عند البابليين، ومثل رؤاة آخرين لدى الأمم السامية كانوا يفحصون في أكباد القرابين أو في الأزلام أو القداح أو الأنصاب؛ أو يبحثون في الأحلام وغيرها من الإشارات ونحوها، وكانوا يفسرون هذه الإشارات بما لديهم من «علم الباطن» وينبئون وفقاً لها بما سيكون، ويكشفون المغيبات.

أمّا «النبي» فكان شخصاً مختلفاً تمام الاختلاف، كان النبي ذا «شطحات»[1] صاحب حرارة، ووجد روحاني، تصل به إلى حد التجرّد عن المادة، والانطلاق ـ لوقت ما ـ من مجال الحواس العادي. كان «الروح» يستولي عليه، ويملأ نفسه وجسده، كما في حالة «المس»[2] وإذا هو ـ تحت سلطان «الروح» ـ قد رأى ما رأى وفعل ما فعل، وقال ما قال. وهذه الحالة من «الشطح» ـ في رأي أولئك الباحثين ـ غريبة تماماً عن طبيعة النفس السامية، وأصلها من آسيا الصغرى، ثم انتقلت من هنالك إلى سوريا فبلاد الكنعانيين، وعلى ذلك يكون التحوّل من «الرائي» إلى «النبي» قد جاء إلى بني إسرائيل من الخارج، وبتأثير الكنعانيين.

وحسب هذه النظرية، فإن صمويل لم يكن نبياً بل رائياً، وتكون صفة «النبي» التي أُعْطِيَتْ له في سفر صمويل الأول ٣: ٢٠[3] مستعملة لغير زمانها، ومثبتة بيد كاتب متأخّر ظنّ أن صمويل كان نبياً كالأنبياء الذين كانوا في زمن هذا الكاتب المتأخّر نفسه.

وكذلك «جاد» و«ناثان» و«أخيا الشيلوني»، لم يكونوا أنبياء بل رؤاة

= وكان يعتاد الرجل فيخبره بالغيب ويمنحه الطب والعرافة والكهانة، كما أنهم استعملوا التعبير «رئي القوم» أي صاحب الرأي فيهم. (ارجع إلى لسان العرب، ج ١٤ ط. بيروت مادة رأى).

(١) ترجمنا بهذه اللفظة الكلمة الأوروبية extasis التي استعملها المؤلف هنا.

(٢) هو ما يسمّى في المعتقدات اليهودية «دبوق»، وهي روح هائمة، مؤذية، تمس بعض الناس فيتخبّطون، وتصبح أحوالهم غير عادية.

(٣) «وعرف جميع إسرائيل، من دان إلى بئر سبع، أن قد اؤتمن صمويل نبياً للرب».

وعرّافين، وفي أجيال متأخّرة فقط ـ هي أجيال الأنبياء ـ أطلق اسم «النبي» على رجال الله أولئك أيضاً.

وحتى موسى لم يكن نبياً، بل نوعاً من العرّاف، مثل السحرة المصريين، وإن كان أعظم منهم وأعلم، وفي أجيال متأخرة فقط، غيّروا صورة موسى وجعلوا منه نبياً، وكل المواضع التي ورد فيها الحديث عن موسى على أنه نبي (مثلاً، العدد ١٢: ٧، ٨ التثنية ١٨: ١١٥/ ٣٤: ١٠)[1]، إنّما كتبت بأيدي سفرة متأخرين، بعد أن نسيت في إسرائيل مميزات «الرائي» والفرق بينه وبين «النبي».

هذه النظرية كلها مبنية على أساس مزعزع، إذ إن صفة النّبي قد أعطيت لناثان في فقرة اتفق الجميع على إيغالها في القدم، وهي الفقرة الخاصة بتولّي سليمان الملك (سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول والثاني)، إذ يرى كل الباحثين أنّها كتبَت في أوائل حكم سليمان، وبيد معاصرة لناثان، وليس من الجائز بحال القول بأنه في كل موضع في هذه الفقرة جاء فيه «ناثان النبي» كان مكتوباً في الأصل «ناثان الرائي» (الملوك الأول، ١: ٨ وما بعدها، حيث تكرر التعبير تسع مرات)[2]. وإذا كان وصف ناثان بأنّه نبي

---

(١) الشاهد الأول الذي ساقه المؤلف هنا (عدد ١٢: ٧، ٨) قد يفهم منه ضمناً فقط أن موسى كان نبياً، ويجب عندئذٍ أن يبدأ الشاهد من الآية ٦، هكذا:
٦ ـ فقال اسمعا كلامي، إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له، وفي الحلم أكلمه.
٧ ـ وأمّا عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين في كل بيتي.
٨ ـ فماً إلى فم، وعياناً أتكلم معه، لا بالألغاز، وشبه الرب يعاين، فلماذا لا تخشيان أن تتكلّما على عبدي موسى.
وأمّا الشاهد الثاني (تثنية ١٨: ١٥) فصريح، وهو:
«يقيم لك الرب إلٰهك نبياً من وسطك، من إخوتك، مثلي، له تسمعون».
وكذلك الشاهد الثالث (تثنية ٣٤: ١٠) وهو:
«ولم يقم نبي من بعد في إسرائيل مثل موسى، الذي عرفه الرب وجهاً لوجه».
(٢) هذه المرات التسع التي ورد فيها التعبير «ناثان النبي» في قصة تولي سليمان الملك، في =

أصيلاً، في هذه الفترة، فإنه أصيل كذلك في صمويل الثاني ٧: ٢/١٢: ٢٥[١].

وقياساً على ناثان، يمكن القول بأنّ وصف «جاد» بأنّه نبـي أصيل أيضاً (صمويل الأول ٢٢: ٥/٢٤: ١١)[٢] وكذلك الحال بالنسبة لأخيا، (الملوك الثاني ١١: ٢٩/ ١٤: ٢، ١٨)[٣] وبالنسبة لصمويل وموسى.

أضف إلى ذلك أن نفس الكاتب الذي سمى صمويل «الرائي» يتكلم في سياق القصة نفسها عن «الأنبياء» (صمويل الأول ١٠: ٥ وما بعدها)[٤] كذلك ورد في قصة قديمة ما خلاصته أنه أثناء معركة جلبوع طلب شاؤل «الأنبياء» لا «الرؤاة» (صمويل الأول ٢٨: ٨، ١٥)[٥]، ولا نريد هنا أن نذكِّر

= الأصحاح الأول من سفر الملوك الأول هي الآيات ٨، ١٠، ٢٢، ٢٣، ٣٢، ٣٤، ٣٨، ٤٤، ٤٥. وكان ناثان النبي وصادوق الكاهن قد تولّيا طقوس تنصيب سليمان ملكاً بأمر من داود.

(١) هاتان الآيتان تتعلّقان بحوادث أقدم زمناً من تتويج سليمان، إذْ الأولى كانت بين داود وناثان قبل ولادة سليمان، والثانية بعدها مباشرة.

(٢) الشاهد الأول: «فقال جاد النبي لداود: لا تقم في الحصن، اذهب وادخل أرض يهوذا، فذهب داود وجاء إلى وعر حارث». والشاهد الثاني: «ولما قام داود صباحاً، كان كلام الرب إلى جاد النبي رائي داود، قائلاً: . . .».
وقد اجتمع في هذه الآية كما نرى لفظا النبي والرائي معاً في وصف جاد، إلاّ أنّ الرائي هنا معبَّر عنه في النص العبري بلفظ «حوزبه»: العراف، الحازي.
وفي ترقيم المؤلف خطأ إذ الآية من صمويل الثاني لا الأول.

(٣) في ترقيـم هذه الشواهد خطأ من المؤلف أيضاً، إذ هي من سفر الملوك الأول لا الثاني. وقد ورد في الشاهد الأول: «أخيا الشيلوني النبي» وفي الثاني «أخيا النبي» وفي الثالث «حسب كلام الرب الذي تكلم به عن يد عبده أخيا النبي».

(٤) «بعد ذلك تأتي إلى جبعة حيث أنصاب الفلسطينيين ويكون عند مجيئك إلى هناك إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبّأون. فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر. وإذا أتت هذه الآيات عليك فافعل ما وجدته يدك لأنّ الله معك».

(٥) في الشاهد الأول خطأ في الترقيم، فالرقم الصحيح للآية هو صمويل الأول ٢٨: ٦، وهي: «فسأل شاؤل من الرب، فلم يجبه الرب لا بالأحلام ولا بالأزلام ولا بالأنبياء». ومن الطريف =

بقصة تدور حول «الأنبياء» في صمويل الأول ١٩: ١٨ - ٢٤)[1]، يقول الباحثون عنها إنّها متأخرة جداً.

وإذن فقد اتّضح أنه كان هناك «أنبياء» في أيام صمويل، وأنه من غير الممكن أن نقول: إن «الحاشية» الواردة في صمويل الأول ٩: ٩ تفيد أنه في أيام صمويل لم يكن لفظ «النبي» قد وجد بعد، أو حتى أن لفظ «النبي» قد استحدث على أيام صمويل فقط، لنوع معين من «رجال الله» هو ذلك النوع من «ذوي الشطحات». فالآية لا تقول أكثر من أن «النبي» و الرائي» بمعنى

= في الموضوع أن نقف بعد ذلك على نوع آخر من العرّافين، حيث يقول، من الآية ٧ إلى الآية ١٥ التي هي موضع الشاهد الثاني: «٧ - فقال شاؤل لعبيده فتشوا لي على امرأة صاحبة جان فأذهب إليها وأسألها، فقال له عبيده هوذا امرأة صاحبة جان في «عين دور»، فتنكر شاؤل ولبس ثياباً أخرى وذهب هو ورجلان معه وجاؤوا إلى المرأة ليلاً، وقال اعرفي لي بالجان، وأصعدي لي من أقول لك. فقالت له المرأة: هوذا أنت تعلم ما فعل شاؤل، كيف قطع أصحاب الجان والتوابع من الأرض، فلماذا تضع لنفسي شركاً لتميتها. فحلف لها شاؤل بالرب قائلاً: حي هو الرب، إنه لا يلحقك إثم في هذا الأمر. فقالت المرأة: من أصعد لك؟ فقال: أصعدي لي صمويل، فلما رأت المرأة صمويل صرخت بصوت عظيم، وكلّمت المرأة شاؤل قائلة: لماذا خدعتني وأنت شاؤل. فقال لها الملك: لا تخافي فماذا رأيت؟ فقالت المرأة لشاؤل: رأيت إلّهاً (ألوهيم) يصعد من الأرض. فقال لها: ما هي صورته، فقالت: رجل شيخ صاعد وهو مغطّى بجبة، فعلم شاؤل أنه صمويل فخرّ على وجهه إلى الأرض وسجد فقال صمويل لشاؤل: لماذا أقلقتني بإصعادك إيّاي، فقال شاؤل: قد ضاق بي الأمر جداً، الفلسطينيون يحاربونني والرب فارقني ولم يعد يجيبني لا بالأنبياء ولا بالأحلام فدعوتك لكي تعلمني ماذا أصنع».

(١) لعلّه من المفيد للقارىء العربي أن نذكر نحن بها، وهي:
فهرب داود ونجا وجاء إلى صمويل في الرامة وأخبره بكل ما عمل به شاؤل، وذهب هو وصمويل وأقاما في نايوت. فأخبر شاؤل وقيل له هوذا داود في نايوت في الرامة. فأرسل شاؤل رسله لأخذ داود، ولما رأوا جماعة الأنبياء يتنبأون. وصمويل واقفاً رئيساً عليهم، كان روح الله على رسل شاؤل فتنبأوا هم أيضاً. وأخبروا شاؤل فأرسل رسلاً آخرين فتنبأوا هم أيضاً، ثم عاد شاؤل فأرسل رسلاً ثالثة فتنبأوا هم أيضاً. فذهب هو أيضاً إلى الرامة، وجاء إلى البئر العظيمة التي عند سيخو، وسأل وقال: أين صمويل وداود؟ فقيل ها هما في نايوت في الرامة. فذهب إلى هناك إلى نايوت في الرامة فكان عليه أيضاً روح الله، فكان يذهب ويتنبأ حتى جاء إلى نايوت في الرامة. فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضاً أمام صمويل، وانطرح عرياناً ذلك النهار كله وكل الليل، لذلك يقولون: أشاؤل أيضاً بين الأنبياء.

واحد، وأنّهم على عهد كاتب هذه الحاشية لم يكونوا يستعملون من بعد لفظة الرائي في الكلام العادي وكانوا يقولون «النبي» بدلاً منها، وإن كان الواقع الثابت هو أنّ لفظة العرّاف، (حوزيه بالعبرية) كانت موجودة وكانت تأتي قرينة للفظة «الرائي» (أشعيا ٣٠: ١٠ حيث يقول «الذين يقولون للرؤاة لا تروا وللناظرين لا تنظروا» ـ وهم العرّافون المشار إليهم ـ وانظر أيضاً صمويل الأول ٢٤: ١١ عاموس ٧: ١٢ الملوك الثاني ١٧: ١٣)[١] ومع ذلك فمن الجائز أيضاً لفظ «الحازي» (بالعبرية حوزيه)[٢] لم يكن قد أصبح نسياً منسياً على لسان الأمة في أيام كاتب الحاشية المذكورة.

كذلك أخطأ الباحثون في ظنّهم أن «الرائي» و«النبي» كلمتان تميزان نوعين مختلفين من «رجال الله». إذ إن الحاشية المذكورة تقول شارحة: إن «الرائي» و«النبي» هما نوع واحد، ومن المحال أن يكون كاتب هذه الحاشية قد أخطأ في أمر من الثابت أنه كان واضحاً في أيامه. فالرائي ليس كما يظن أصحاب هذه النظرية مجرّد رجل من رجال الله غير قابل للشطحات،

(١) الشاهد الأول فيه خطأ في الترقيم في الأصل العبري، وصوابه صمويل الثاني ٢٤: ١١ وهو الذي تقدمت الإشارة إليه وتصحيح ترقيمه آنفاً. ولفظة (حوزيه ـ عراف) لم تجيء هنا قرينة للرائي وإنما للنبي.

والشاهد الثاني، عاموس ٧: ١٢ هو:

(فقال أمصيا لعاموس: أيها العراف (حوزيه) اذهب اهرب إلى أرض يهوذا وكل هناك خبزاً وهناك تنبأ». ونلاحظ اقتران العراف هنا أيضاً بالتنبؤ.

والشاهد الثالث، الملوك الثاني ١٧: ١٣ هو:

«وأشهد الرب على إسرائيل وعلى يهوذا على يد جميع الأنبياء وكل عرّاف «حوزيه» قائلاً: ارجعوا عن طرقكم الرديئة، واحفظوا وصاياي الواجبة لي حسب كل الشريعة التي أوصيت بها آباءكم والتي أرسلتها إليكم على يد عبادي الأنبياء». وفي هذا الشاهد نلاحظ مجيء العرّاف قريناً للنبي أيضاً.

(٢) في اللغة العربية: حزا يحزو حزواً الشيء حزره وقدّره بظنه وتكهّن، وكذلك تحزى. والحازي الكاهن، والذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه يتكهن (انظر مثلاً: معجم الطالب لجرجس همام الشويري ـ طبع المطبعة العثمانية، بعبدا ـ لبنان سنة ١٩٠٧) وعلى ذلك يمكن وضع كلمة «الحازي» مكان «الرائي» التي استعملتها بعض الترجمات العربية للكتاب المقدّس وكذلك كلمة «العرّاف» التي وردت في الآيات السابقة وأبقينا عليها لشهرتها.

بالعكس، هو إنسان يرى الرؤى الإلّهية، كما أنّ مرادفه «الحازي» هو أيضاً إنسان يرى الرؤى، كما يبدو ذلك واضحاً من كلمات أشعيا ٣٠: ١٠ التي استشهدنا بها آنفاً. وبما أنّ النبي هو كذلك «الرائي» فهو إذن «الحازي» أيضاً. والفعل (رأى) كثيراً ما يستعمل للرؤية الإلّهية التي يراها النبي (الملوك الثاني ٢٢ : ١٩، أشعيا ٦ : ١، أرميا ١ : ١١، ١٣ عاموس ٧ : وما بعدها، حزقيال ١ : ١/٨ : ٢، وغير ذلك كثير)[1]. لكن في حالة الرؤية الإلّهية كان النبي يقع تحت سلطان «الروح»، أو كما نقول في حالة شطح، كما قال صدقيا بن كنعانة لميخا بن يملة: «من أين عبر روح الرب مني ليكلمك؟» (الملوك الأول ٢٢ : ٢٤). وكذلك يروي حزقيال أنّه في الرؤى التي رآها «كانت عليه يد الرب» (حزقيال ١ : ٣/٨ : ١، ٢/٤٠، ١، ٢ وغيرها).

وبعد، فليس صحيحاً أن «النبي» صاحب الشطحات دخيل على إسرائيل من الكنعانيين، وأن الكنعانيين أخذوه من آسيا الصغرى، فمن الممكن العثور على بقايا من حالة «الشطح» هذه لدى بعض الأمم السامية

---

(١) الشاهد الأول فيه خطأ في الترقيم في الأصل العبري صوابه الملوك الأول (لا الثاني) ٢٢ : ١٩ وهو:

«قد رأيت الرب جالساً على كرسيه، وكل جند السماء وقوف لديه عن يمينه وعن يساره».

والشاهد الثاني هو: «في سنة وفاة عزيا الملك، رأيت الرب جالساً على كرسي عال شاهق وأذياله تملأ الهيكل». ولزيادة الشاهد وضوحاً ننقل للقارىء العربي بقيّة السياق أي (أشعيا ٦ : ٢ ـ ٧) «السرافيم (قبيل من الملائكة) واقفون فوق، لكل واحد ستة أجنحة، باثنين يغطي وجهه، وباثنين يغطي رجليه، وباثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدّوس قدّوس رب الجنود، مجده ملء كل الأرض. فاهتزّت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً. فقلت: ويل لي، إني هلكت لأني إنسان نجس الشفتين وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، وعيناي قد رأتا الملك، رب الجنود، فطار إلي واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح، ومسّ بها فمي وقال: إن هذه قد مسّت شفتيك فانتزع إثمك وكفر عن خطيئتك».

والشاهد الثالث والرابع (أرميا ١ : ١١، ١٣): «ماذا أنت راء. .» يتكرّر السؤال في المرتين.

والشاهد الخامس (عاموس ٧: ١،وما بعدها): «هكذا أراني السيد الرب. .» التي تتكرر في هذا الإصحاح والذي يليه.

والشاهد السادس (حزقيال ١ : ١): «فرأيت رؤى الله».

والشاهد السابع (حزقيال ٨: ٢): «فرأيت وإذا شبه منظر نار».

الأخرى، وإن كانت هذه البقايا قليلة، نظراً لقلّة المادة الأدبية التي حفظت لنا من هذه الأمم. ويبدو أن لفظ «النبي» خاص ببني إسرائيل، فليست هناك نقوش تثبت وجوده في الكنعانية أو الفينيقية. ثم إن الفعل «نبأ» الذي اشتق منه الاسم «نبي» لا يوجد في عبرية العهد القديم، في صورته الأساسية، أي الثلاثي المجردّ. والفعل المستعمل للدلالة على عمل النبي في العهد القديم جاء في الصيغ المزيدة على زنة «فعَّل» و«تفعَّل» وهي في الحقيقة صيغ مشتقّة من الاسم «نبي» نفسه. وهذه الحقيقة تدعونا إلى الاعتقاد بأن الاسم «نبي» قديم جداً في العبرية الإسرائيلية، وأنه يصعد إلى ما قبل التاريخ من حياة بني إسرائيل. ولما كان هذا الاسم نفسه يميز عماداً حياً وفعّالاً في حياة الأمّة فإنه قد حفظ منذ تلك الحقب السحيقة بعد أن نسي الفعل المجرد «نبأ» الذي اشتقّ منه، مع توالي العصور التاريخية، وانتهى أمره، واختفى من اللغة. وإذا كان ذلك كذلك فلا مجال للقول بأن «النبي» - في موضع «الرائي» - معنى استُحدث في إسرائيل من أيام صمويل فقط أو في أيام آخاب، إذ المعنى المستحدث يقتضي اسماً مستحدثاً، لا اسماً قديماً اختفى أصل اشتقاقه من اللغة منذ أجيال.

ب ـ النبي في وظائف المعبد

ليس من الممكن لنا اليوم أن نقف بدقة على المفهوم الأساسي للفظ «النبي»[1]، ولكننا نستطيع أن نتبين مدلول هذا الاسم من وظيفة النبي في حياة الأمة الإسرائيلية. ويتّضح لنا هذا المدلول في التوراة، ففي سفر الخروج ٧: ١ يقول الله لموسى: «انظر، أنا جعلتك رباً (ألوهيم) لفرعون، وهرون أخوك يكون نبيك». ووظيفة هرون إلى جانب موسى مشروحة في مكان آخر من سفر الخروج (٤: ١٦): «وهو يكلم الشعب عنك، وهو يكون لك فماً، وأنت تكون له رباً (الوهيم)». ومن ذلك نعلم أن النبي هو ـ إن جاز لنا هذا التعبير ـ فم ربه الذي به يتحدث إلى الشعب فيسمعه كلام هذا «الرب»، كما كان هارون بمثابة نبي لموسى، عليه أن يكون فماً لموسى يبلغ كلام موسى إلى الشعب وإلى فرعون.

وكلتا التسميتين (الرائي ـ الحازي) من جهة، و(النبي) من جهة أخرى، لا تعنيان نوعين متميزين من «رجل الله»، بل هما تعنيان اتجاهين، وعلاقتين لنفس الرجل يكمل كل منهما الآخر، وهما معاً يمكنان «رجل الله» من أن يملأ وظيفته التي حدّدت له من قبل الله. فالاسم «الرائي ـ الحازي» يعين صلة رجل الله بالله، «الرائي ـ الحازي» يرى رؤيا الله وينظر نظر القدير (العدد ٢٤: ٤ ـ ١٦) بينما الاسم «النبي» يعين صلة «رجل الله» بالأمة.

(١) ارجع إلى The Oxford Herbrew Lexicon (1906) 611, Hastings; Dictionary of the Bible, IV P. 108 b. (تعليق مؤلف البحث)

«النبي» - إن جاز لنا هذا التعبير - فم الله الذي يتحدث ويسمع الشعب كلام الله الذي سمعه هو في رؤيا النبوة. وعلى ذلك فإنّ «رجل الله» الكامل، مثل موسى وصمويل، أو عاموس وأشعيا وأمثالهم، كان «رائياً - حازياً» وكان «نبياً» معاً. وهكذا جاء أن صمويل تجلّى له الله في الرؤيا (بالعبرية حازون)، ومن ثم عرف في إسرائيل بأنه «نبي الله» (صمويل الأول ٣: ١، ٢٠). ولكن من الجائز جداً أنّه على أيام صمويل كان هناك من «رجال الله» من لم يصلوا إلى درجة الكمال التي وصل إليها صمويل نفسه بالجمع بين طرفي المهمة النبوية، فكانوا «رائين - حازين» أكثر منهم أنبياء دعاة، أو أنهم كانوا في أيامهم من «رجال الله» وعرفهم الشعب رؤاة أكثر مما عرفهم أنبياء، أو أنّ الشعب قد خبرهم أكثر كرؤاة، وهكذا استعمل هذا الشعب في حديثه العادي لفظ «الرائي» أكثر من لفظ «النبي».

والواقع أنّ النبي لم يكن فحسب - إن جاز هذا التعبير - فماً لله أمام الشعب، بل كان أيضاً فماً للشعب أمام الله. كان النبي هو الوسيط بين الخاص والعام وبين الله. ويبـدو أنّ الوظائف المنوطة بالنبي في كافة العصور كانت الصلاة من أجل الأفراد والجماعات. فكانوا يلجأون إلى النبي في الضراء والبأساء، ليقوم ضارعاً أمام الله حتى يأتي بالفرج، وقد ورد في حق إبراهيم «أنه نبي يصلي من أجلك فتحيا» (التكوين ٢٠ - ٧ وكذلك ١٧)[1] وقد تضرّع إبراهيم كذلك مراراً إلى الله كي لا يخسف سدوم (تكوين ١٨ : ٢٣ - ٣٣)[2].

---

(١) الشاهد الثاني (تكوين ٢٠ : ١٧) هو:
«فصلى إبراهيم إلى الله، فشفى الله أبيمالك وامرأته وجواريه فولدن».

(٢) هذا الشاهد هو:
«فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم. عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه. حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر، ان تميت البار مع الأثيم، فيكون البار كالأثيم، حاشا لك: أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً. فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن =

ونجد على الخصوص موسى، أبا الأنبياء، يكثر صلاته إلى الله من أجل آخرين، مثلاً: من أجل فرعون والمصريين (الخروج ٩: ٣٣/١٠: ١٨) ومن أجل بني إسرائيل فيما كانوا فيه من الضراء (الخروج ١٤: ١٥/١٥: ١٧/٢٥: ٤/٣٢: ١١، ٣١، التثنية ٩: ١٨، ٢٦، العدد ١١: ٢/١٤: ١٣/١٦: ٢٢/٢١: ١٧) ومن أجل أفراد (العدد ١٢: ١٣، التثنية ٩: ٢٠).

كذلك صلّى صمويل النبي من أجل بني إسرائيل (صمويل الأول ٧: ٥، ٨ - ٩/١٢: ١٩، ٢٣، وقارن أرميا ١٥: ١) ومن أجل شاؤل (صمويل الأول ١٥: ١١).

كما صلّى أنبياء آخرون من أجل الأمة، ومن أجل بعض الأفراد، كصلاة «رجل الله» من سبط يهوذا من أجل يربعام (الملوك الأول ١٣: ٦) وكإلياس (الملوك الأول ١٧: ٢١) واليسع (الملوك الثاني ٤: ٣٣/٦: ١٧، ١٨) وعاموس (عاموس ٧: ٢، ٥) وأشعيا (الملوك الثاني ١٩: ٤، أشعيا ٣٧، ٤) وأرميا (أرميا ٧: ١٦/١١: ١٤/١٤: ١١/١٥: ١/٣٧: ٤/٤٢: ٢، ٢٠) وأيوب (أيوب ٤٢: ٦) وغيرهم.

وقد وصلتنا أمثلة مختلفة من كلام الأنبياء في صلواتهم من أجل الأمة، مثل (هوشع ٦: ١ - ٣/١٤: ٣ - ٤، وميخا ٧: ١٤ وما بعدها، وأرميا ١٠: ٢٣ - ٢٥/١٤: ٧ - ٩، ١٩ - ٢٢، وأشعيا ٦٣: ١٥/٦٤: ١١، ويوئيل ١: ١٩ - ٢٠/٢: ١٧) وهي صلوات تليت للجمهور في المعبد في

= المكان كله من أجلهم. فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلم المولى، وأنا تراب ورماد. ربما نقص الخمسون باراً خمسة، أتهلك كل المدينة بالخمسة. فقال: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين. فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال: لا أفعل من أجل الأربعين. فقال: لا يسخط المولى فأتكلم، عسى أن يوجد هناك ثلاثون، فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين. فقال: إني قد شرعت أكلّم المولى، عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال: لا أهلك من أجل العشرين. فقال، لا يسخط المولى فأتكلّم هذه المرّة فقط، عسى أن يوجد هناك عشرة فقال: لا أهلك من أجل العشرة.

أيام الصوم والأعياد الدينية (قارن صمويل الأول ٧: ٦ ويوئيل ٢: ١٥)[1].

---

(١) هذه الأمثلة من كلام الأنبياء في صلواتهم على التوالي:

- «هلم نرجع إلى الله لأنه هو أصابنا وهو يشفينا، هو ضربنا وهو يجبرنا. يحيينا بعد يومين، في اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه، ونعرف طلب العلم بالله، الذي هو كالفجر إشراقه أكيد، وسيأتينا كالغيث، كشؤبوب الربيع الذي يُحيي الأرض» (هوشع ٦: ١ - ٣).
- «خذوا معكم كلاماً، وارجعوا إلى الله، فقولوا له: ارفع كل إثم، وتقبّل الحسنة، فنقدم إليك قرابين من شفاهنا. إن آشور لن يخلصنا، لن نركب الخيل ونقول لما صنعت أيدينا: إنها آلهتنا، فبك أنت يرحم اليتيم» (هوشع ١٤: ٣ - ٤).
- «ارع بعصاك شعبك، غنم ميراثك الساكنة وحدها في وعر وسط الكرمل، لترعى في باشان وجلعاد كأيام القدم». (ميخا ٧: ١٤).
- «عرفت يا رب أن الإنسان لا يملك طريقه، وما كان لامرىء يمشي أن يهدي خطاه. أدّبني يا رب ولكن بالحق، لا بغضبك حتى لا تهلكني. اسكب غضبك على الأمم التي لم تعرفك، وعلى العشائر التي لم تدع باسمك، لأنهم أكلوا يعقوب، وأفنوه وخرّبوا داره» (أرميا ١٠: ٢٥).
- «إن تكن آثامنا تشهد علينا، يا رب، فاعمل من أجل اسمك، لأن معاصينا كثرت، وإليك أخطأنا. يا رجاء إسرائيل، ومخلصه في وقت الضراء، لماذا تكون كغريب في الأرض وكابن سبيل مال ليبيت. لماذا تكون كإنسان حائر، وكبطل لم يستطع أن يخلص، وأنت يا رب في وسطنا وعلينا ذكر اسمك، لا تهملنا» (أرميا ١٤: ٧ - ٩).
- «هل رفضت يهوذا رفضاً، أم هل عافت نفسك صهيون، لماذا ضربتنا دون أن يكون لنا شفاء، لقد أملنا في السلام فلم يكن خير وفي وقت الشفاء فإذا الهول. لقد عرفنا، يا رب، شرنا، إثم آبائنا، لأننا قد أخطأنا إليك. من أجل اسمك لا ترفض، لا توهن كرسي مجدك، اذكر ولا تنقض عهدك. هل يوجد بين أباطيل الأمم من يرسل المطر، وهل السموات هي التي تعطي الغيوث، ألست أنت هو الله، إلّهنا، ونحن نؤمل فيك لأنّك أنت صنعت كل ذلك». (أرميا ١٤: ١٩ - ٢٢).
- «تطلع من السموات، وانظر من مسكن قدسك و مجدك، أين غيرتك وجبروتك، زفير أحشائك ومراحمك، هل امتنعت عني» (أشعيا ٦٣: ١٥).
- «أتجمد أمام كل هذا، يا رب، وتصمت وتذلّنا الذل كله» (أشعيا ٦٤: ١١).
- «إليك يا رب أصرخ، لأن ناراً قد أكلت مراعي البرية، ولهيباً أحرق جميع أشجار الحقل. حتى بهائم الصحراء تنظر إليك لأن جداول المياه قد جفّت، والنار أكلت مراعي البرية». (يوئيل ١: ١٩ - ٢٠).
- «ليبك الكهنة خدام الرب بين الرواق والمذبح ويقولوا: اشفق يا رب على شعبك، ولا تسلم ميراثك للعار فتجعلهم الأمم مثلاً، لماذا يقولون بين الشعوب: أين إلّههم» (يوئيل ٢: ١٧).
- يبدأ هذا الشاهد من صمويل الأول، الذي ساقه المؤلف هنا للمقارنة، من الآية الخامسة وبها =

ومن المعروف أن الأنبياء كانوا مرتبطين بالمعابد، إذ كانـوا يقيمون حولها وكان التجلي الإلّهي يعتادهم داخل المعبد، كما حدث لموسى (الخروج ٢٥: ٢٣/٣٣: ٩ ـ ١١، اللاويين ١: ١) ولصموئيل (صموئيل الأول: الإصحاح الثالث) وأشعيا (أشعيا ٦: ١)[1] وقارن أيضاً (التكوين ٢٨: ١٦، ١٧).

وقد اعتاد الأنبياء أن يلقوا نبوآتهم على الشعب في المعبد (أرميا ٧: ٢/١٩: ١٤/٢٦: ٢، ٢٨/٧: ١/٣٦: ٦، قارن عاموس ٧: ١٣).

وقد سكن صموئيل مدينة منسك ومذبح، وكان يرتاد الأماكن التي فيها معابد (صموئيل الأول ٧: ١٦، ١٧/٩: ١٢)، كما كان مجمع الأنبياء على عهده في «نايوت» التي في «الرامة» (صموئيل الأول ١٩: ١٩، ٢٠).

وكان أخيا يمارس النبوة في «شيلوه» (الملوك الأول ١٤: ٢) وقد بقي هناك مكان مقدّس حتى بعد خراب معبد شيلوه في أيام صموئيل، وكان يسكن في «بيت إل» نبي شيخ (الملوك الأول ١٣: ١١) وسكن «بيت إل» أيضاً أبناء الأنبياء، كما سكنوا أريحا (التي كانت مكاناً مقدّساً، إذ فيها تجلّى الملك ليوشع، سفر يوشع ٥: ١٣ ـ ١٥) وفي جلجال (وهو مكان مقدّس،

= يزداد وضوحاً، وهو: «فقال صموئيل: اجمعوا كل إسرائيل إلى «المصفاة». فأصلّي لأجلكم إلى الرب. فاجتمعوا إلى «المصفاة»، واستقوا ماء وسكبوه أمام الرب، وصاموا في ذلك اليوم، وقالوا هناك: قد أخطأنا إلى الرب» (صموئيل الأول ٧: ٥ ـ ٦).

ـ «اضربوا بالبوق في صهيون، قدسوا صوماً، نادوا باعتكاف» (يوئيل ٢: ١٥). ولعل من تمام الفائدة أن نذكر الآية التي بعدها (١٦) حيث يستمر وصف هذه الطقوس ثم تأتي الآية (١٧) المتضمنة لصلاة يوئيل، والتي أوردناها آنفاً. فالآية ١٦ تقول: «اجمعوا الشعب، قدّسوا الجماعة، احشدوا الشيوخ، اجمعوا الأطفال وراضعي الثدي، وليخرج العريس من مخدعه والعروس من خدرها».

(١) ارجع في هذا الموضع إلى تفسير الرُّبِّي داود قمحي (ردق) باللغة العبرية، وكذلك: G. B. Gray; Isaiah (1912), p. 101. (تعليق المؤلف).

هوشع ٤ : ١٥ وغيرها، الملوك الثاني ٢ : ٣، ٥/٤ : ٣٨) وقد أقام إلياس واليسع في جلجال (الملوك الثاني : ١) وأقام اليسع أيضاً في أريحا، وفي «بيت إل» وفي جبل الكرمل الذي أقام به مذبحاً (الملوك الأول ١٨ : ٣٠ وما بعدها)، وفي جلجال والسامرة (الملوك الثاني ٢ : ١٨، ٢٣، ٢٥/٤ : ٣٨/٥ : ٣). وقد كان بالسامرة كذلك معبد (هوشع ٨ : ٥، ٦).

كذلك أقام أنبياء يهوذا في أورشليم أو أعلنوا نبواتهم على الملأ في بيت المقدس الذي بأورشليم (أرميا ٢٨ : ١/٢٦ : ٢٠ في قوله: «على هذه المدينة»)[1].

---

(١) الشواهد التي ساقها المؤلف على ارتباط الأنبياء بالمعابد هي على التوالي:
- ورد الشاهد المذكور في الإصحاح الخامس والعشرين من سفر الخروج في الكلام عن الهيكل، وهنا خطأ في الترقيم من المؤلف فالآية المقصودة هي بدون شك رقم ٢٢ لا ٢٣ وهي: «وأنا أجتمع بك هنا، وأتكلم معك».
- «وكان عمود الغمام إذا دخل موسى الخيمة، ينزل ويقف عند باب الخيمة، ويتكلّم الله مع موسى فيرى جميع الشعب عمود الغمام واقفاً عند باب الخيمة، ويقوم كل الشعب ويسجدون، كل واحد في باب خيمته. ويكلّم الله موسى وجهاً لوجه، كما يكلم الرجل صاحبه، وإذا رجع موسى إلى المحلة كان خادمه يوشع بن نون لا يبرح من داخل الخيمة». (الخروج ٣٣: ٩ - ١١).
- «ودعا الله موسى وكلّمه من خيمة الاجتماع قائلاً: . .» (اللاويين ١ : ١).
- ومن أوضح الشواهد على التجلّي الإلهي في المعبد للأنبياء، الإصحاح الثالث من سفر صمويل الأول أشار المؤلف إليه بتمامه شاهداً على ذلك، وإن كنّا نلاحظ أن قصة هذا التجلّي حسب روايتها في هذا الإصحاح نفسه قد وقعت وصمويل بعد صبي، وكأنها تحدّد بداية نبوته والإصحاح يبدأ هكذا:

«وكان الصبي صمويل يخدم الرب بين يدي «عالي» وكانت كلمة الرب عزيزة في تلك الأيام، ولم تكن الرؤيا كثيرة. وكان في ذلك الوقت، إذ كان «عالي» مضطجعاً في مكانه، وعيناه ابتدأتا تضعفان ولم يعد يقدر على الإبصار. وقبل أن ينطفىء سراج الله، وصمويل مضطجع في هيكل الرب الذي فيه تابوت الله. إنّ الرب دعا صمويل، فقال: هأنذا. وركض إلى «عالي» وقال: هأنذا لأنك دعوتني فقال: لم أدع، ارجع واضطجع، فذهب واضطجع. ثم عاد الرب ودعا أيضاً صمويل، فقام صمويل وذهب إلى «عالي» وقال: هأنذا لأنك دعوتني، فقال: لم أدع يا بني، ارجع واضطجع. ولم يكن صمويل قد عرف =

وإقامة الأنبياء في الأماكن المقدسة أمر مفهوم من تلقاء ذاته، فالمعبد كان مكان التقاء واجتماع للأمة في أيام الأعياد وأوائل الشهور والسبت، ومن الطبيعي أن يوجد الأنبياء ثمة لإجابة الوافدين والمستفسرين عما خبأ لهم الغيب، بل يبدو أن الأنبياء ـ وبخاصة مجامع أبناء الأنبياء ـ كانوا يشتركون في شعائر المعبد، ولم يكن ذلك في أوقات موقوتة فحسب كأيام الصوم وطقوس الجماعة، بل كذلك، وبانتظام، في كل شعائر الله التي يؤديها الجمهور.

والحق أنه في المعابد الرئيسية كان الكهنة يؤمون الشعائر، ولكن كان عملهم مقصوراً على القرابين وما إليها من العبادات، ولم نجد قط ما يفيد أن

= الرب بعد، ولا أعلن له كلام الرب بعد. . .» إلى آخر الإصحاح (صمويل الأول ٣: ١ ـ ٧).

ـ سبق ذكر الشاهد المأخوذ من (أشعيا ٦: ١) في الكلام على استعمال الفعل «رأى» للرؤية الإلّهية.

ـ هذا الشاهد (التكوين) يختم رؤيا يعقوب المشهورة بالقرب من «حاران» عندما رأى سلّماً ممتدّاً من الأرض إلى السماء، والآيتان هما: «فاستيقظ يعقوب من نومه، وقال: حقاً إن الله في هذا المكان وأنا لم أكن أعلم. وخاف وقال: ما أشد رهبة هذا المكان، ما هذا إلّا بيت الله، وهذا باب السماء» (التكوين ٢٨: ١٦ ـ ١٧) وفي الآيات التالية نرى يعقوب يقيم المعبد الأول في هذا المكان ويسميه «بيت آل» أي بيت الله.

ـ «قف في باب بيت الله، وناده بهذه الكلمة وقل: اسمعوا كلمة الرب يا جميع يهوذا الداخلين في هذه الأبواب لتسجدوا لله». (أرميا ٧: ٢).

ـ «ثمّ جاء أرميا من «التوفة» التي أرسله الرب إليها ليتنبأ، ووقف في صحن بيت الله وقال لكل الشعب» (أرميا ١٩: ١٤).

ـ «هكـذا قال الله: قف في صحن بيت الله وتكلّم على كل مدن يهوذا القادمة للسجود في بيت الله بكل الكلام الذي أوصيتك أن تتكلم به إليهم، لا تنقص كلمة» (أرميا ٢٦: ٢).

ـ «وسمع الكهنة والأنبياء وكل الشعب أرميا يتكلّم بهذا الكلام في بيت الله» (أرميا ٢٦: ٧).

ـ «وحدث في تلك السنة، في ابتداء ملك صدقيا ملك يهوذا في السنة الرابعة، في الشهر الخامس، أن حننيا بن عزور النبي الذي من جبعون، كلّمني في بيت الله أمام الكهنة وكل الشعب، قائلاً. . .» (أرميا ٢٨: ١).

ـ «فادخل أنت واقرأ في الطومار الذي كتبت عن فمي كل كلام الله بمسمع الشعب، في بيت الله، في يوم الصوم، واقرأه أيضاً بمسمع كل يهوذا القادمين من مدنهم» (أرميا ٣٦: ٦).

ـ «أمّا بيت إل فلا تعد تتنبّأ فيها بعد، لأنها مقدس الملك وبيت المملكة» (عاموس ٧: ١٣).

الكهنة كانوا يصلّون من أجل آخرين، بل كانوا عادة، على أكثر تقدير، يبـاركـون الشعب (العـدد ٦: ٢٢ - ٢٧) ولكن ذلك كان متصلاً بالقرابين أيضاً (العدد ٩: ٢٢، ابن سيراخ ٣: ٢٠)[١] وحتى في طقوس القربان نجد أن «الرائي» كان من عادته أن يبارك الذبيحة قبل أن يبدأ المدعوون بالأكل منها (صمويل الأول ٩: ١٣)[٢].

ومن الواجب أن نذكر أن الشعائر في المعابد لم تكن مقصورة على القرابين وحدها، ففي أيام الصوم، وأيام الضراء، كانت ترتفع من المعابد صلوات الأنبياء من أجل الأمة، وفي أيام الأعياد والاجتماعات كانوا ينشدون المزامير وترانيم الشكر والابتهال بمصاحبة الآلات الموسيقية! والرقص أيضاً (الخروج ١٥: ٢٠، صمويل الثاني ٦: ٥ وأيضاً الخروج ٣٢: ١٩). ويقول عاموس: إن التغنّي بالأناشيد بمصاحبة الآلات الموسيقية كان عادة متبعة في معابد إفرايم على أيامه (عاموس ٥: ٢٣)، والواقع أن الأمر كان على هذا النحو أيضاً في معبد أورشليم في تلك العصور (قارن: أشعيا ٣٠: ٢٩)[٣].

---

(١) الشواهد على بركة الكهنة للشعب واتصالها بالقرابين:
- «وكلّم الرب موسى قائلاً: كلّم هارون وبنيه قائلاً: هكذا تباركون بني إسرائيل قائلين لهم: يباركك الرب ويحرسك. يضيء الرب بوجهه عليك ويرحمك. يرفع الرب عليك وجهه، ويمنحك سلاماً. فيجعلون اسمي على بني إسرائيل وأنا أباركهم» (العدد ٦: ٢٢ - ٢٧).
- «ثمّ رفع هارون يده نحو الشعب وباركهم ونزل من عمل ذبيحة الخطية والمحرقة وذبيحة السلامة».
(والترقيم الذي أعطاه المؤلف خطأ صوابه: اللاويين ٩: ٢٢).
- هذا الشاهد غير موجود في سفر ابن سيراخ، ولا شك أن المؤلف يشير إلى موضع آخر من العهد القديم يستحيل التكهّن به لكثرة الشواهد المتشابهة على هذه الفكرة. ويشبهه ابن سيراخ ٥٠: ١٣ - ٢٦.

(٢) لم يجد المترجم ضرورة ملحّة تدعو إلى ذكر نص هذا الشاهد لأن المؤلف لخّص القصد منه بدقة ووضوح.

(٣) هذه المجموعة من الشواهد على مصاحبة الموسيقى والرقص لترانيم الأنبياء ومزاميرهم هي على التوالي:
- «فأخذت مريم النبية، أخت هارون، الدف بيدها، وخرجت جميع النساء وراءها بدفوف ورقص» (الخروج ٢٥: ٢٠).

=

وعلى ذلك، فلما لم يرد في العهد القديم ما يفيد أن الكهنة كانوا يقومون بالصلاة والتراتيل، فإنه يمكن الاعتقاد، بناء على ذلك، أنه قبل أن يستقر في بني إسرائيل وضع خاص، ووظائف محدّدة للمنشدين اللاويين، كما هو موصوف في سفر أخبار الأيام (أخبار الأيـام الأول ١٦: ٤ ـ ٦، ٣٧ ـ ٤٢، والإصحاح ٢٥ بتمامه)[1] فقد كان معهوداً للأنبياء لا أن يؤموا

= ـ «وداود وكل بيت إسرائيل يعزفون أمام الرب بكل أنواع الآلات من خشب السرو، بالعيدان وبالرباب وبالدفوف والجنوك والصنوج» (صموئيل الثاني ٦: ٥).
ـ «وكان عندما اقترب من المحلة (أي موسى) أنه أبصر العجل والرقص فحمي غضب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرهما في أسفل الجبل» (الخروج ٣٢: ١٦).
ـ «أبعد عني صخب أغانيك، ونفحة ربابك لا أسمع». (عاموس ٥: ٢٣).
ـ «تكون لكم أغنية كليلة تقديس عيد، وفرح قلب كالسائر بالناي ليأتي إلى جبل الرب، إلى صَخْرة إسرائيل» (أشعيا ٣٠: ٢٩).

(١) الشواهد الخاصة بوظائف الكهنة المنشدين اللاويين هي:
ـ «وجعل أمام تابوت الرب من اللاويين خداماً، ولأجل التذكير والشكر وتسبيح الرب إله إسرائيل. آساف الرئيس وزكريا ثانيه ويعيئيل وشميراموت ويحيئيل ومتتيا واليآب وبنايا وعوبيد أدوم ويعيئيل بآلات رباب وعيدان، وكان آساف يصوت بالصنوج. وبنايا ويحزيئيل الكاهنان بالأبواق دائماً أمام تابوت عهد الله». (أخبار الأيام الأول ١٦: ٤ ـ ٦).
ـ «وترك هناك أمام تابوت عهد الرب، آساف، وإخوته ليخدموا أمام التابوت دائماً خدمة كل يوم بيومها. وعوبيد أدوم وإخوتهم ثمانية وستين، وعوبيد أدوم بن يديتون وحوسة بوابين. وصادوق الكاهن وإخوته الكهنة أمام مسكن الرب في المرتفعة التي في جبعون. ليصعدوا محرقات للرب على مذبح المحرقة، دائماً، صباحاً ومساءً حسب كل ما هو مكتوب في شريعة الرب التي أمر بها إسرائيل. ومعهم هيمان ويدوتون وباقي المنتخبين الذين ذكرت أسماؤهم ليحمدوا الرب، لأنه إلى الأبد رحمته. ومعهم هيمان ويدوتون بأبواق وصنوج للمصوتين، وآلات غناء الله، وبنويدوتون بوابون». (أخبار الأيام الأول ١٦: ٣٧ ـ ٤٢).
ـ «وخصّص داود ورؤساء الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدوتون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج، وكان عددهم من رجال العمل حسب خدمتهم ـ من بني آساف زكور ويوسف ونتنيا وأشرئيلة، بنو آساف تحت يد آساف المتنبىء بين يدي الملك. من يدوتون، بنو يدوتون، جدليا وصرى واشعيا وحشبيا ومتتيا، ستة، تحت يد أبيهم يدوتون المتنبىء بالعود لأجل الحمد والتسبيح للرب. من هيمان بقيا ومتنيا وعزيئيل وشبوئيل ويريموت وحننيا وحناني وايليآته وجدلتي وروممتي عازار ويشبقاشة وملوتي وهوتير ومحزيوت. جميع هؤلاء بنو هيمان، حازي الملك النافخ في البوق مع كلام الله، ورزق الرب هيمان أربعة عشر ابناً وثلاث بنات. كل هؤلاء تحت يد أبيهم للغناء في بيت الرب بالصنوج والرباب والعيدان لخدمة بيت الله =

الصلاة فحسب بل أن يقوموا بالإنشاد والموسيقى والرقص أيضاً. وفي الفقرة الخاصة بتولّي شاؤل الملك يروى أن شاؤل «التقى بزمرة من الأنبياء نازلين من المرتفعة وأمامهم رباب ودف وناي وعود وهم يتنبأون» (صمويل الأول ١٠ : ٤). وليس هناك من شك في أن تلك الآلات الموسيقية كانت لمصاحبة الترنم والأناشيد والأشعار، وأن هذه الأشعار كانت من الشعر المقدّس الذي بدأ الأنبياء في ترتيله فوق المرتفعة نفسها، وقبل هبوطهم منها، ولم يوصف هذا العمل في تلك القصة كما لو كان أمراً مستحدثاً لذلك اليوم المعلوم، وإنّما المستحدث في القصة هو أنّ شاؤل عندما التقى بهذه الزمرة من الأنبياء تأثّر بهم، وتنبأ مثلهم، ومن مشاركة شاؤل هذه للأنبياء جاء المثل السائر «أشاؤل أيضاً بين الأنبياء؟» (صمويل الأول ١٠ : ١٢). وقد تواتر أن ما فعلته زمرة الأنبياء هذه فوق المرتفعة على أيام صمويل، فعله أبناء الأنبياء أيضاً في «بيت إل» والجلجال، وأريحا، والسامرة، وسائر المعابد في أيام إلياس واليسع، وفي الأجيال الأخيرة من عهد الهيكل الأول.

وكذلك نجد أن «مريم» وهي تتزعم جوقة النساء، في أنشودة البحر بمصاحبة الدفوف والرقص قد سميت نبية (الخروج ١٥ : ٢٠ - ٢١) لأنها في عملها هذا كانت تقوم بما يقوم به الأنبياء، فهي إذن قد تنبأت.

ومن هنا يتأكد لنا أن التغنّي بالأناشيد بمصاحبة آلات الموسيقى والرقص كان من عمل الأنبياء، ومن أجل هذا أيضاً أطلق صاحب سفر أخبار الأيام على اللاويين الذين كانوا يقومون بالإنشاد في المعبد على آلات الموسيقى اسم «الأنبياء»، كما دعا فعلهم هذا «عمل نبوة»، وهكذا نقرأ في

= تحت يد الملك وآساف ويدوتون وهيمان. وكان عددهم مع أخوتهم المعلمين الغناء للرب، كل الخبيرين مئتين وثمانية وثمانين وألقوا قرع الحراسة، الصغير كالكبير، والمعلم مع التلميذ. فخرجت القرعة الأولى التي هي لآساف. . .» (أخبار الأيام الأول ٢٥ : ١ - ٩). ثم يلي ذلك تقسيم الحراسة المذكورة بالقرعة، في كل مرة اثنا عشر شخصاً إلى آخر هذا الإصحاح.

سفر أخبار الأيام الأول ٢٥ : ١ «. . . بني آساف ويدوتون المتنبئين (هكذا كتابة الكلمة، والقراءة المتواترة «الأنبياء»، وكذلك في الآية ٢) بالعيدان والرباب والصنوج. . .» وفي الآية ٢ نقرأ آساف المتنبىء بين يدي الملك»، وفي الآية ٣ «. . . تحت يد أبيهم يدوتون المتنبىء بالعود لأجل الحمد والتسبيح للرب»، وفي ٥ ـ ٦ «. . . لهيمان حازي الملك. . . لأجل غناء بيت الرب بالصنوج والرباب والعيدان، لخدمة بيت الله. . .».

كذلك عندما أرادت المرأة الشونمية أن تذهب إلى اليسع النبي سألها زوجها: «لماذا تذهبين إليه؟ اليوم لا هو غرة شهر ولا هو سبت» «الملوك الثاني ٤ : ١٣)، ومفهوم من ذلك أن العادة قد جرت بالذهاب إلى النبي، أي إلى المعبد الذي يمارس فيه النبي مهمّته في غرة الشهر والسبت. ولم تكن هذه الزيارة للتوسل إلى الله على يد النبي أو لسماع بركة النبي على الذبيحة، بل كانت في الواقع أيضاً لشهود شعائر الله في تلك الأيام المقدسة، حيث يؤم النبي الطقوس الإلهية بالصلاة والإنشاد والموسيقى.

والواقع أننا كما نجد فيما بين أيدينا من أسفار الأنبياء صلوات، فإننا نجد فيها كذلك أناشيد من نوع تلك التي في سفر المزامير[1]. مثلاً، من

(١) المواضع التي أشار إليها المؤلف كشواهد على الأناشيد النبوية الداخلة في نوع المزامير هي على التوالي:

ـ «هو صانع الثريا والجوزاء، ويصير ظل الموت صبحاً، ويظلم النهار كالليل: ويدعو مياه البحر فيسكبها على وجه الأرض، اسمه يهوه» (عاموس ٥ : ٨).

ـ «والسيد، رب الجنود، يمس الأرض فتموج؛ وينوح الساكنون فيها، وتفيض كنهر، ثم تغيض كنيل مصر، الذي بنى في السموات علالية وأسس على الأرض قبته، الذي يدعو مياه البحر فيسكبها على وجه الأرض، اسمه يهوه» (عاموس ٩: ٥ ـ ٦).

ـ «الشعب السالك في الظلمة رأى نوراً عظيماً، والساكنون في أرض ظل الموت أشرق عليهم نور. لقد أكثرت الأمة وعظمت لها الفرح، ففرحوا بين يديك كفرحة الحصاد، كما يفرحون إذ يقتسمون غنيمة» (أشعيا ٩: ١ ـ ٢).

ـ «وتقول في ذلك اليوم: أشكرك يا رب إذ غضبت علي، فليسكن غضبك فتؤاسيني. إن الله خلاصي، وأنا أثق فلا أخاف، لأن ياه ـ يهوه ـ قوتي وترنيمي، وقد أصبح لي خلاصاً. ولتمتاحن الماء بفرح من ينابيع الخلاص. وتقولون في ذلك اليوم: اشكروا الله، ادعوا باسمه، عرفوا بين الشعوب بأفعاله، ذكروا بأن اسمه تعالى. رنّموا للرب لأنه صنع مجداً،

=

= ليكن هذا معروفاً في كل الأرض. زغردي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن قدوس إسرائيل عندك عظيم».

- «يا رب، أنت إلَهي، أعظمك، أحمد اسمك، لأنك صنعت عجباً، مقاصدك منذ القدم أمانة وصدق، إذا حولت مدينة إلى رجام وجعلت قرية حصينة دكاً، ولن يبنى قصر الأجانب من المدينة أبداً. لذلك يجلك شعب قوي وتهابك قرية أمم عتاة. لأنك كنت حصناً للمسكين، حصناً للبائس في ضيره، ملجأ من السيل، ظلاً من الهجير، إذ كانت نفخة العتاة كسيل على جدار، كهجير في فيفاء، أنت تقمح صخب الأجانب، وكالهجير لظل الغمام، يعنو صياح العتاة..» (أشعيا ٢٥: ١ - ٥) ويستمر كذلك إلى نهايته.
- «في ذلك اليوم يغني بهذه الأغنية في أرض يهوذا، لنا مدينة قوية، جعل لها أماناً بالأسوار والمتراس. افتحوا الأبـواب لتدخل الأمة البارة الحافظة الأمانة. بالرأي السديد تصون السلام، السلام الذي عليك يعتمد..» (أشعيا ٢٦: ١ - ٣) ويستمر هكذا إلى نهايته.
- «أنا قلت: في عزّ أيامي سأذهب إلى أبواب الهاوية وقد حرمت بقية عمري. وقلت: لن أرى الرب، بأرض الأحياء، ولن أبصر بعد بشراً مع سكان الفناء. مسكني قد اقتلع ونزع مني كخيمة الراعي، طويت كالحائك حياتي، من النول اجتثني، أنت تضنيني نهاراً وليلاً. وأنا أصرخ إلى الصباح وهو كالأسد يهشم عظامي كلها، أنت تضنيني نهاراً وليلاً. وأنا كفرخ الكركي أصيح، أهدر كالحمامة، عيناي قد ضعفتا وأنا أنظر إلى فوق، يا رب، قد ضقت ذرعاً فاكفلني. بماذا أتكلم، وقد قال لي وفعل، إنني أتمشى طول عمري على مرارة نفسي. من كان الله معهم يحيون، إذ الحياة التي من روحه للجميع، فيهم، فلتشفني وتحيني. ها قد صارت مرارتي المريرة سلاماً وأنت انتشلت نفسي من وهدة الهلاك لأنك ضربت صفحاً عن كل خطاياي. لأن الهاوية لا تشكرك، الموت لا يسبحك، ولا ينتظر الساقطون في البئر أمانتك. بل الحي الحي هو الذي يشكرك مثلي اليوم، ويعرف الأب البنين أمانتك. الرب لخلاصي، فلتعزف أنغامي كل أيام حياتنا عند بيت الله» (أشعيا ٣٨: ١٠ - ٢٠).

[هذا النّص ينطوي على إشكالات اختلف فيها المفسِّرون والمترجمون وقد اخترنا منها ما بدا لنا أنه الأوفق والأصح وكان من أهم مراجعنا في ذلك الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس التي أشرف على إصدارها محققة ومعلقاً عليها استاذنا ادوار دورم].

- «غنوا للرب أغنية جديدة، تسبيحة من أقصى الأرض، أيها المنحدرون في البحر وملؤه الجزائر وسكانها. لترفع البرية ومدنها صوتها، الديار التي سكنها قيدار، ليترنم سكان سلع وليهتفوا من رؤوس الجبال. ليجعلوا الله مجداً ويخبروا بتسبيحة في الجزائر» (أشعيا ٤٢: ١٠ - ١٢).
- «ترنّمي يا سماء لأن الله قد فعل، اهتفي يا أعماق الأرض وافصحي يا جبال ترنّماً، والغاب وكل شجرة فيه لأن الرب قد فدى يعقوب، وفي إسرائيل تمجد» (أشعيا ٤٤: ٢٣).
- «فرحاً أفرح بالرب، تبتهج نفسي بإلَهي، لأنه قد ألبسني ثياب الخلاص، كساني رداء البِرّ مثل عريس يتزين بعمامة وعروس تتزين بحليهـا» (أشعيا ٦١: ١٠).
- «رنّموا للرب، سبّحوا الرب، لأنه أنقذ المسكين من يد الأشرار» (أرميا ٢٠: ١٣).

شعر الشكر والابتهال (عاموس ٥: ٨/٩: ٥ ـ ٦، أشعيا ٩: ١ ـ ٢، والإصحاحات ١٢/٢٥/٢٦/٣٨: ١٠ـ ٢٠/٤٢: ١٠ ـ ٢٠/٤٢: ١٠ ـ ١٢/٤٤: ٢٣/٦١: ١٠، أرميا ٢٠: ١٣) ومن الأناشيد الوعظية من ضروب أخرى[1] (ميخا ٦: ٦ ـ ٨/٧: ٧ وما بعدها، وكذلك ناحوم ١:

---

(١) شواهد الأناشيد الوعظية من غير نوع المزامير هي:

ـ «بماذا أتقدم إلى الرب، وأنحني للإله العلي، هل أتقدم بمحرقات، بعجول حولية. هل يبتهج الرب بألوف الكباش، أو بألوف أنهار الزيت هل أعطي بكري عن معصيتي، وثمرة جسدي عن خطيئة نفسي. لقد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح، وماذا يطلبه منك الرب، إنما هو أن تصنع الحق، وتحب الرحمة وتسلك متواضعاً مع إلهك» (ميخا ٦: ٦ ـ ٨).

ـ «أما أنا فأراقب الرب: أصبر لإله خلاصي، وسيسمعني إلهي. لا تشمتي بي يا عدوتي، فإنني ما سقطت إلاّ قمت. إذا قعدت في الظلام فالرب نور لي. وغضب الله أنا أحتمله، لأني أخطأت إليه، إلى أن يقيم دعواي ويجري حقي. سيخرجني إلى النور وسأرى عدله». (ميخا ٧: ٧ ـ ٩).

ـ «الرب إله غيور ومنتقم من مبغضيه ومبق غضبه على إعدائه. الرب بطيء الغضب وعظيم القدرة، ولكنه لا يبرىء أبداً، الرب في العاصفة، وفي الأعصار طريقه، والسحاب غبار رجليه. ينتهر البحر فينشفه ويجفف جميع الأنهارَ، يذبل باشان والكرمل، وزهر لبنان يذبل. الجبال ترجف منه، والتلال تذوب والأرض تغور أمام وجهه، والعالم وكل الساكنين فيه. من يقف أمام سخطه، ومن يقوم في حمو غضبه، غيظه ينسكب كالنار، والصخور تنهار منه. صالح هو الرب، حصن في يوم الضيق، وهو يعرف المتوكلين عليه، حتى في الطوفان الجارف، ويجعل الهلاك التام للقائمين ضده، ويطارد أعداءه في الظلام، ماذا تظنون بالرب، هو جاعل هلاكاً تاماً، ولن يقوم الكرب مرتين». (ناحوم ١: ٢ ـ ٩ ويستمر بعدها).

[لاحظ أستاذنا ادوار دورم أن هذا النشيد يبدأ جمله بحروف الهجاء العبرية مرتبة على حسب ترتيبها في الأبجدية، كما خالف في مواضع الترجمات المعروفة معتمداً على ما ورد في الترجمة اليونانية السعينية، وقد استفدنا في ترجمتنا بتحقيقاته].

ـ «صلاة لحبقوق النبي، من أجل الندم. يا رب، قد سمعت ذكرك، وخشعت أمام صنعك، أحيه يا رب على مرّ السنين، وعرف به عبر الأحقاب، وفي الغضب تذكر الرحمة. الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران، فصمتا. جلاله غطى السموات، والأرض امتلأت من تسبيحه. وكان بريق كالنور، له شعاع من يده حيث تكمن عزته. أمامه يسير الطاعون، وعند قدميه تخرج الحمى» (حبقوق ٣: ١ ـ ٥ وهكذا الآخر).

ـ «هكذا قال الرب: ملعون الرجل الذي يتّكل على الإنسان، ويجعل البشر ذراعه، وعن الرب يحيد قلبه. فليصيرن مثل العرعر في البادية، ولا يبصر عندما يجيء الخير، بل يسكن الحرة في الصحراء، في أرض سبخة لا تسكن. مبارك الرجل الذي يتكل على الرب ويكون الرب =

٢ ـ ٩، حبقوق الإصحاح الثالث، أرميا ١٧ : ٥ ـ ١١ وغيرها).

كما توجد في التوراة أناشيد وأغاني لموسى أبي الأنبياء كنشيد البحر (الخروج، الأصحاح ١٥) أغنية التابوت (العدد ١٠ : ٢٥ ـ ٢٦) النشيد الوعظي «انصتي» (التثنية، الإصحاح ٣٢) ونشيدي الفاتحة والخاتمة لبركة موسى (التثنية ٣٣ : ٢ ـ ٥، ٢٦ ـ ٢٩) كما تنسب إلى دبورة النبية قصيدة النصر على سيسرا، وهي تحتوي على بعض آيات من نوع المزامير (القضاة ٥ : ٣ ـ ٦، ٩، ٣١) والواقع أيضاً أنه دخلت إلى سفر المزامير بعض مزامير ألفها الأنبياء مثل المزمور ١١٠ وما يشابهه[1]، وقد استعملت في عبادة الله في المعبد.

= ثقته. فإنه يصير كشجرة مغروسة على ماء، وعلى نهر تمد جذورها، فلا تخشى مجيء الحر، ويظل ورقها أخضر، وفي سنة القحط لا تخاف ولا تكف عن الأثمار. القلب أكثر خداعاً من كل شيء، ولا شفاء له، فمن ذا الذي يعرفه. أنا الرب، أخبر القلب، وأسبر الكلي لأعطي كل واحد حسب سلوكه، حسب ثمار أعماله. الحجلة تحضن غير بيضها، كذلك الذي يغتني بغير الحق، يفارقه الغني في وسط أيامه، ويصبح في آخرته أحمق» (أرميا ١٧ : ٥ ـ ١١).

(١) شواهد من الأناشيد والمزامير النبوية:

ـ «حينئذ رنّم موسى وبنو إسرائيل هذه التسبيحة للرب، وقالوا: أرنم للرب فإنه قد تمجد، الفرس وراكبه طرحهما في البحر. الرب قوتي ونشيدي، وقد صار خلاصي، هذا إلّهي فأمجده، إلّه أبي فأعظمه. الرب رجل حرب، اسمه يهوه. مركبات فرعون وجيشه ألقاهما في البحر فغرق خير فرسانه في بحر ذي قصب. تغطيهم اللجج، وقد هبطوا في الأعماق كحجر، يمينك يا رب معتزة بالقدرة يمينك يا رب تحطم العدو» (الخروج ١٥ : ١ ـ ٦ وهكذا إلى النهاية).

ـ «وعند ارتحال التابوت كان موسى يقول: قم يا رب، وليتبدد أعداؤك، ويهرب مبغضوك من أمامك. وعند حلوله كان يقول ارجع يا رب إلى الألوف المؤلفة من إسرائيل».

[في الترقيم خطأ والصواب هو: العدد ١٠ : ٣٥ ـ ٣٦].

ـ «انصتي أيتها السموات فأتكلم، ولتسمع الأرض أقوال فمي، يهطل كالمطر تعليمي، ويقطر كالندى كلامي، كالطل على الكلأ، وكالوابل على العشب، إني باسم الرب أنادي، أعطوا مجداً لإلهنا. هو الصخر الكامل صنيعه، وجميع سبله عدل، إله أمانة لا جور عنده، صديق وعادل هو» (التثنية ٣٢ ويستمر هكذا).

ـ «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته. فقال: جاء الرب من «سيناء»، وأشرق لهم من «سعير»، وتلألأ من «جبل فاران»، وأتى من «مريبة قدش» وعن يمينه=

وهذا الافتراض المتعلق بوظيفة الأنبياء في الطقوس الدينية التي كانت تقام في المعابد والهياكل، يوضح لنا هذا الازدواج بين الأنبياء والكهنة، الـذي نجده في أسفـار الأنبياء، كمـا في أشعيا ٢٨ : ٧ «كـاهن ونبي» وأرميا ٢٦ : ٩ «الكهنة والأنبياء» وغيرهما.

ويذكر الكهنة دائماً أولاً فيما عدا المواضع التي يدور السياق فيها عن النبوة لأن الحديث فيها أكثر اتصالاً بالنبي منه بالكاهن (أرميا ٢٣ : ٣٣، ٣٤)، وذلك لأن الكهنة كانوا أكثر أهمية في المعبد، وكان الأنبياء تبعاً لهم وملحقين بهم، ومن أجل ذلك يقول هوشع: إنه عندما يتعثر الكاهن يتعثر النبي أيضاً (هوشع ٤ : ٥).

ويتهم أرميا الأنبياء الذين تنبأوا كذباً بأنهم آلة في أيدي الكهنة ليمدوا سلطانهم على الشعب، «الأنبياء» يتنبأون كذباً والكهنة يحكمون على أيديهم

= نار شريعة لهم. فأحب الشعب. . .» (التثنية ٣٣: من أول الإصحاح).

- «ليس مثل الله يا يشورون، يركب السماء لمعونتك، والغمام في عظمته. الإِلّه القديم موئل، من تحته أذرع أبدية وهو يطرد العدو من أمامك، ويقول: أهلك. فيبقى إسرائيل آمناً، وتكون عين يعقوب وحدها في أرض حنطة ونبيذ، تحت سماء تقطر الندى. طوباك يا إسرائيل، من مثلك شعب منصور بالرب، ترس عونك وسيف مجدك. إن أعداءك يذلون أمامك أما أنت فتمشي على مرتفعاتهم» (التثنية ٣٣: ٢٦ - ٢٩).

- «اسمعوا أيها الملوك، واصغوا أيها العظماء. أنا أنا للرب أترنم، أزمر للرب إلّه إسرائيل، يا رب، بخروجك من سعير، من صحراء «أدوم»، الأرض ارتعشت، السموات أيضاً قطرت، كذلك السحب قطرت ماء، تزلزلت الجبال من وجه الرب وسيناء هذا، من وجه الرب إلّه إسرائيل» (القضاة ٥: ٣ - ٦).

- «قلبي نحو قضاة إسرائيل المنتدبين في الشعب، باركوا الرب» (القضاة ٥: ٩).

- «هكذا يبيد جميع أعدائك يا رب، أما أحباؤه، فمثـل خروج الشمس في عنفـوانها» (القضاة ٥: ٣١).

- «لداود، مزمور، قال الله لسيدي: اجلس عن يميني لأجعل أعداءك موطئاً لقدميك. سيمد الله من صهيون صولجان عزك، تسلط في وسط أعدائك. معك النبل في يوم مولدك والأمجاد القدسية منذ الرحم، وعليك ريعان الصبا. لقد أقسم الله ولن يندم لتكونن كاهنـاً إلى الأبد على طريقة ملكيصدق. السيد عن يمينك يحطم الملوك يوم غضبه. ويدين الأمم فتمتلىء جثثاً هشم رؤوسها على الأرض الواسعة، ويشرب من الجدول وهكذا يرفع رأسه» [مزمور ١١٠، وقد استعنّا في ترجمته بتحقيقات أستاذنا دورم في ترجمته الفرنسية].

(أرميا ٥: ٣١)[١]، كما أن تبعية النبي للكاهن، وكونه دون الكاهن في المنزلة، يظهـران أيضاً في أرميا ٦: ١٣ ـ «لأنهم من صغيرهم إلى كبيرهم، كل منهم مولع بالربح، ومن النبي إلى الكاهن كل منهم يعمل بالكذب»، فجاء بالنبي في مقابل «صغيرهم» وبالكاهن في مقابل «كبيرهم»، (قارن أيضاً: أشعيا ٩: ١٤، وهي حاشية مفسرة للآية ١٣)[٢].

(١) ارجع في تفسير هذه الآية إلى تفسير الرِّبِّي داود قمحي (ردق) باللغة العبرية (تعليق مؤلف البحث).

(٢) فقطع الله من إسرائيل الرأس والذنب، النخل والأسل في يوم واحد. الشيخ، والكاهن، وهو الرأس، والنبي، أستاذ الكذب، هو الذنب» (أشعيا ٩: ١٣ ـ ١٤).
هذه ترجمتنا، والترجمة العربية البروتستانتية وضعت بدل «الكاهن» لفظة «المعتبر»، ووضعت تراجم أجنبية منها ترجمة أستاذنا دورم الفرنسية لفظة «المفضل» أو «المقرب» أو «ذو الحظوة» مقابل الكلمة العبرية nesu - panim، ومعناها حرفياً «المرفوع الوجه» وقد بدا لنا أنها تسمية متأثرة بالبابلية الآشورية munzaz - panim بنفس المعنى الحرفي، وكانت تستعمله اصطلاحياً لكاهن الملك. ويبدو من استشهاد مؤلف البحث بهذه الآية أنه يرى رأينا في ترجمتها.

جـ ـ أنباء، تنبأ

عمل زمرة الأنبياء، في قصة تملك شاؤل، منصوص عليه هو «وهم متنبئون» (صمويل الأول ١٠ : ٤) وصيغة «تفعـل» أي «تنبأ» مشتقـة من الاسم «نبي»، وليس مـدلولهـا «تكلم كلام النبـوة» ولكن «سلك سلوك الأنبياء»، «وعمل عمل نبي»، وصيغة «تفعل» هذه لم تستعمل في العهد القديم قط لأعمال الأنبياء الكبار، أنبياء الله المرسلين الذين حفظت لنا نبواتهم في الكتب المقدسة، إذ أن عمل هؤلاء الأنبياء يعبر عنه دائماً بصيغة الانفعال (بالعبرية نفعل أي «نبَّا»[١] وهنَّابي)[٢] (عاموس ٣: ٨، حزقيال ٢١ : ٢ : ٧) وكثير غير ذلك، وردت مرة واحدة فقط صيغة «تفعل» مستعملة لكلام نبوي لحزقيال: «وهنَّبئتي» وأصلها (قبل الإدغـام) «وهتنبئتي» (أي وتنبأت) (حزقيال ٣٧: ١٠) ومع ذلك فمن الجائز أن يكون النطق الأصلي هنا: «ونبئتي» كما هو في نفس هذا الإصحاح آية ٧، وأنه تحول إلى صورته الحالية لمجاورته للفظتيّ «هنابيء. . . . هنابيء» في الآية التاسعة، السابقة لهذه الصورة مباشرة[٣].

كما نجد صيغة «تفعل» مرة أخرى مستعملة لكلام نبوة يقوله نبي الله

---

(١) أصلها في العبرية (ننبا) بزيادة النون على الأصل الثلاثي (ن ب أ) مثل نون (انفعل) في العربية.

(٢) هي في العبرية صيغة المصدر من وزن نفعل السابق ذكره.

(٣) G. H. Cornell; Ezechiel (1886), P. 418; G. Bergstrasser: Heb. Gramm. (1929), II, 55 18 d.. (تعليق المؤلف)

في : أرميا ٢٦ : ٢٠ ، «وكان رجل يتنبأ أيضاً باسم الرب، أوريا» . . . إلخ . ويشتمّ من فحوى النّص المكتوب أن أوريا لم يكن نبياً مسلّماً به كما كان أرميا الذي خصّه بكل تلك الفقرة، مثلاً. ولذلك يمكن القول بأنه كان «يتنبأ»، أي يتصرف تصرف نبي . أما عندما اتجه الحديث إلى ذكر نبوة نبي بحق، فإن ذلك جاء في نفس الآية بعد هذا «ويّنابيء» (بصيغة الانفعال).

كذلك توجد صيغة «تفعل - تنبأ» للتعبير عن عمل الشيوخ الذين حلت عليهم روح موسى (العدد ١١ : ٢٥ - ٢٧) وإن كان هؤلاء الشيوخ لم يصبحوا أنبياء بحق بل «تنبأوا» أي تصرفوا كالأنبياء في الساعة التي بها حلّت عليهم الروح لا أكثر[١]، ولم تحل عليهم روح القدس لتجعل منهم أنبياء، بل لتكرسهم قادة للأمة، كما حلت روح النبوة على شاؤل عندما مسح ملكاً، وكما حلت روح الله على داود عندما مسح ملكاً، (صمويل الأول ١٠ : ١٠، ١٦ : ١٣) وعلى القضاة (القضاة ٣ : ٣٠، ١١ : ٢٩، ١٣ : ٢٥).

وواضح في قصة شاؤل أن صيغة «تفعل - تنبأ» لا تعني أن زمرة الأنبياء تكلمت كلام نبوة، وإنما تعني أنهم أنشدوا وتغنّوا وترنّموا في تأثر كما جرت العادة أن يفعل النبي ذلك في إقامته لشعائر الله . و«تنبأ» هنا تجمع أيضاً فكرة التجرد من الجسمانية التي كانت تحدث للأنبياء عندما تحل بهم «الروح»، فكرة «الشطح» الذي كان يستولي على من يدخل في دائرة تأثير أصحاب الشطح أنفسهم عندما كانوا يعملون معاً في جماعة واحدة، كما حدث لشاؤل، وكذلك للرسل الذين بعث بهم للقبض على داود، (صمويل الأول ١٠ : ١٠/١٩ : ٢٠ - ٢٤).

كذلك تستعمل صيغة «تفعل - تنبأ» مجازاً، للتعبير عن غيبوبة الحواس العادية والوقوع تحت سلطان «حال» من «الأحوال» الروحانية، حال فقدان

(١) «ولم يزيدوا»، ارجع هنا إلى كتابي، وإلى تفسيري الربي سليمان الإسحاق (رشى) والربي إبراهيم بن عزرا (ر ا ب ع) باللغة العبرية (تعليق المؤلف).

الوعي، والجنون، كما في صمويل الأول ١٨ : ١٠. قارن أيضاً أرميا ١٩ : ٢٦، الملوك الثاني ٩: ي، ١١ هوشع ٩: ٧ حيث دُعي النبي ـ استهزاءً به ـ مجنوناً، بسبب وقوعه في وجدانات عنيفة كانت تبدو في عين الشخص العادي كالجنون.

واستعملت صيغة «تفعل ـ تنبأ» لنبوة أنبياء بعل خاصة (الملوك الأول ١٧ : ٢٩، أرميا ٢٣ : ١٣ حيث ورد هنَّابئو وأصلها هتنبَّئو) ولنبوة الأنبياء الكاذبين (الملوك الأول ٢٢ : ١٠، أخبار الأيام الثاني ١٨ : ٩، أرميا ١٤ : ١٤، حزقيال ١٣ : ١٧). كذلك استعملت صيغة تفعل في الحديث عن نبوة نبي الله على لسان شخص لا يؤمن بنبوته ويقف منه موقف العداوة والاستهزاء، كما استعملها أخاب في حديثه عن نبوة ميخا بن يملة (الملوك الأول ٢٢ : ٨، ١٨، أخبار الأيام الثاني ١٨ : ٧، ١٧) واستعملها عدو لارميا وهو يتحدث عن نبوته (أرميا ٢٩ : ٢٦، ٢٧). والواقع أن استعمال صيغة «تفعل ـ تنبأ» له لون واحد هو «صنع صنع النبي دون أن يكون بحق نبياً، ادعى النبوة»، وقد جاءت على هذه الصيغة (تفعل) الأفعال التي تفيد ادعاء المرض (صمويل الثاني ١٣ : ٥، ٦) وادعاء الغني (الأمثال ١٣ : ٧)، دون أن يكون الفاعل في الحقيقة مريضاً أو غنياً.

حقاً إن صيغة الانفعال «نِبًا ـ هنَّابي» قد استعملت هي أيضاً لأنبياء الكذب، لكن فقط مقترنة بلفظة نبيئيم (أي أنبياء) من أجل المزاوجة الصوتية في لفظيهما (بالعبرية) «نبيئيم نبيئيم» (النبيون المنبئون) بدل «نبيئيم متنبئيم» (النبيون المتنبئون) الملوك الأول ٢٢ : ١٢، أخبار الأيام الثاني ١٨ : ١١، أرميا ٢ : ٨/٥ : ١٤/٣١ : ١٤ (ونجد في هذه الآية الأخيرة الصيغتين (انفعل) ثم (تفعل) على التوالي)، ١٥ ـ ٢٣/١٦ : ١٦، ٢٥، ٣٧/٢٦ : ١٩، حزقيال ١٣ : ٢، ١٦. وفيما عدا هذه المزاوجة مع لفظة «نبيئيم» (النبيين) جاءت صيغة الانفعال في الحديث عن أنبياء الكذب ـ بلا مزاوجة ـ فقط عندما يتلو ذلك مباشرة النص على أن نبوتهم كاذبة، أرميا ٢٧ : ١٤ ـ ٢٩/١٦ : ٩.

د ـ النبي للفرد، والنبي للأمة

النبوة هي التي كوّنت الشعب الإسرائيلي، وهي التي وقفت معه في الساعات القاسية التي مرّت به، وبنبيّ أصعد الله إسرائيل من مصر، وبنبي حفظ (هوشع ١٢: ١٤). فموسى أبو الأنبياء، أخرج إسرائيل من مصر، ووحد أسباطهم، فأصبحوا أمة واحدة بقوة التوراة والإيمان بإلـه الآباء. ويوشع، والقضاة، استولوا على الأرض (فلسطين) وانتصروا على أعداء إسرائيل بقوة الروح الإلّهي الذي حلّ عليهم. ودبورة النبية ساعدت بقوة نبوءتها على تخليص إسرائيل من الكنعانيين وتحقيق سيادتهم في الأرض. وبقوة النبوة أصبح صمويل، النبي، سنداً لشعبه إبان محنة الفلسطينيين.

ولكن صمويل قد أحدث تغييراً جوهرياً في تنظيم الشعب الإسرائيلي، نتج عنه إضعاف أثر النبوة في حياة الأمة، فهو قد نصب في إسرائيل ملكاً، فأخرج الملك قيادة الأمّة من يد النبوة ووضعها في صولجان الملك. وهكذا حول الملك أسباط إسرائيل إلى أمّة عسكرية مدنية يرأسها قائد عسكري مدني، أي انتقل بها من الأساس الديني إلى الأساس العلماني، وبهذا انتهى أمر إسرائيل كأمّة تيوقراطية (دينية الحكم) وكشعب مختار، الله ملكه، والنبي قائده، وأصبح دولة علمانية ككل الدول المجاورة، على رأسها ملك علماني بشر من لحم ودم، ولها تطلعات سياسية، ومطامع أسرية في الملك.

والحق أنّ هذا الانتقال في قيادة الأمّة من النبوة إلى الملك لم يقع طفرة واحدة، وبلا صراع قاس بين الملك الأول، شاؤل، ونبي هذه الفترة،

صمويل، وإن كان هذا الصراع قصير الأجل، إذ بموت صمويل لم يعد في إسرائيل نبي قادر على منافسة الملك في القيادة، فإن وريثي صمويل، وهما جاد «الحازي» وناثان «النبي»، لم يكونا إلاّ خادمين لداود ومستشارين له فقط. وحتى النبي العظيم الشجاع، إلياس التشبي، الذي حاول أن يثير الأمة ضد عبادة «بعل» القائمة في بيت الملك.. حتى هو، بعد انتصاره في جبل الكرمل، «شدّ حقويه وركض أمام آخاب» الراكب في عربته، وكأنّما هو عبد بين يدي سيده (الملوك الأول ١٨ : ٤٦).

ومع ذلك فإن أثر الأنبياء في حياة الفرد من بني إسرائيل لم ينته مع قيام الملك، بالعكس، ازداد نشاط الأنبياء واتسع من أيام صمويل وما بعدها، وإن كان جلال النبوة وأثرها القيادي في الأمّة قد تدهور تدهوراً عجيباً؛ إذ زاد عدد الأنبياء وأصبحوا فئة خاصة في الأمة، ونزلت النبوة هكذا إلى مستوى الصناعة أو المهنة ذات القواعد المقررة التي يستطيع الإنسان أن يتعلّمها ويتدرب عليها.

فلا عجب والحالة هذه أن يدخل في فئة الأنبياء أناس لم يحل عليهم الروح القدس ولم تكن لهم تلك المواهب النفسانية والروحانية التي كانت للنبي الحق، المرسل من لدن الله، حتى لقد كان بينهم أناس أقبلوا على الكسب الحرام، ونبأوا واشتغلوا بالعرافة لحساب كل من يدفع الثمن، ومنهم ظهر أنبياء الكذب الذين أضلوا الشعب.

وكان تعامل هؤلاء مع الأفراد، وإن كان الأنبياء الحقيقيون ـ هم أيضاً ـ لم يعودوا يتجهون إلى الأمة كلها مثل موسى وصمويل بل إلى أفراد بني إسرائيل فقط، من الشخص العادي إلى الملك والرئيس، فكان وعظهم يقال للأفراد وعلى حدة (صمويل الثاني ١٢ : ٧[١]، الملوك الأول ١٤ : ٧[٢]

---

(١) يشير المؤلف إلى وعظ ناثان لداود بعد اغتصابه لامرأة قائد جنده أوريا الحيثي (صمويل الثاني ١٢ : ٧ ـ ١٥).

(٢) يشير المؤلف إلى وعظ أخيا النبي لامرأة الملك يربعام ملك إسرائيل المنشق على أسرة داود بعد موت سليمان (الملوك الأول ١٤ : ٧ ـ ١٦).

وغيرهما) لا للجمهور مجتمعاً وللأمة كلها، فمن يوم ظهور صمويل، كزعيم للأمة لآخر مرة، ليسلم القيادة إلى الملك (صمويل الأول الإصحاح ١٢) إلى ظهور عاموس النبي، لا نجد نبياً يقوم في مجمع عام، ويلقي حديثه على الأمة كلها.

أما ما فعله إلياس على جبل الكرمل فهو حالة خاصة، وتصرف «ابن ساعته» وكان مع ذلك بأذن من أخاب (الملك) وبناء على رغبته (الملوك الأول ١٨ : ١٩ ـ ٢٠)(١)، هذا هو الفرق الحقيقي بين الأنبياء الأول الذين جاءوا بعد صمويل، أولئك الأنبياء الذين قاموا في إسرائيل بعد أن توطد الملك وبين الأنبياء المتأخرين، عاموس ومن جاء بعده.

فالأنبياء الأول كانوا أنبياء للأفراد، والأنبياء الأخر كانوا أنبياء للأمة كلها. وبالطبع قام عاموس وأمثاله بوعظ الملوك والرؤساء، ولكن هذا الوعظ كان علناً على رؤوس الأشهاد، وبمسمع من الجماعة، لا في خلوة كما يفعل الأنبياء الأول، لقد كانوا يعظون الملوك والرؤساء في خطب عامة، كما كانوا، وفي خطب عامة أيضاً، يعظون غيرهم من طبقات الأمة كالقضاة والكهنة والأنبياء وكافة الناس.

أمّا الباعث الأساسي على هذا التجديد في مهنة النبي في أيام عاموس، فهو فشل الأنبياء الأول في مهماتهم السياسية في مملكة أفرايم، إذ أنه بسبب أخطاء سليمان في شيخوخته ثار الأنبياء ضده، وتعاونوا مع أعدائه السياسيين، مما أدى إلى خروج عشرة أسباط على بيت داود (الملوك

---

(١) فالآن أرسل واجمع إليّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل، وأنبياء بعل الأربع مائة والخمسين وأنبياء أشرة الأربع مائة الذين يأكلون على مائدة إيزابيل. فأرسل أخاب إلى جميع بني إسرائيل وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل. فتقدّم الياس إلى جميع الشعب وقال، حتام تعرجون بين الفرقتين، إن كان الرب هو الله فاتبعوه، وأن كان هو «بعل» فاتبعوه، فلم يجبه الشعب بكلمة» (الملوك الأول ١٨ : ١٩ ـ ٢١).

الأول ١١: ١٢/٣١: ٢٤)[١] ولكن يـربعـام، ملك أفرايم الأول (بعـد الانشقاق) أساء في الحكم أكثر من سليمان إذ أنه أدخل طقوس الوثنية الكنعانية في صميم عبادة الله، وكان ذلك على ما يبدو، بسبب تطلعه سياسياً إلى إرضاء أمراء الكنعانيين الذين كان سليمان قد أذلّهم في البلاد (الملوك الأول ٩: ٢١)[٢] وإلى اجتذابهم لدين الله، والإسراع بهذه الطريقة في إدماجهم في بني إسـرائيـل.

وقد أصبحت «أخطاء يربعام» هذه سياسة تقليدية لكل ملوك أفرايم الذين جاءوا من بعده (الملوك الأول ١٥: ١٦/٣٠: ٢، ٢٦، ٣١، الملوك الثاني ١٣: ٢، ١٤/١١: ٢٤ وغيرها)[٣]، الأمر الذي أثار المعارضة من

---

(١) الشاهد الأول يجب أن يبدأ قبل ذلك بآيتين، وهو:

- «وكان في ذلك الزمان، لما خرج يربعام من أورشليم أن لاقاه أخيا الشيلوني النبي، في الطريق وهو لابس رداءً جديداً، وهما وحدهما في الحقل. فقبض أخيا على الرداء الجديد الذي عليه ومزقه اثنتي عشرة قطعة. وقال ليربعام: خذ لنفسك عشر قطع، لأنه هكذا قال الرب إله إسرائيل هأنذا أمزق المملكة من يد سليمان وأعطيك عشرة أسباط» (الملوك الأول ١١: ٢٦ - ٣١).

والشاهد الثاني يجب أن يبدأ قبل ذلك بآية، وهو:

- «وكان كلام الله إلى شمعيا، رجل الله، قائلاً، كلم رحبعام بن سليمان ملك يهوذا وكل بيت يهوذا وبنيامين وبقية الشعب قائلاً: «هكذا قال الرب: لا تصعدوا ولا تحاربوا إخوتكم بني إسرائيل، ارجعوا كل واحد إلى بيته لأن من عندي هذا الأمر، فسمعوا لكلام الرب، ورجعوا لينطلقوا حسب قول الرب» (الملوك الأول ١٢: ٢٣ - ٢٤).

(٢) هذا الشاهد أيضاً يجب أن يبدأ قبل ذلك بآية، وهو:

«جميع الشعب الباقين من الأموريين والحيثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين الذين ليسوا من بني إسرائيل، أبناؤهم الذين بقوا بعدهم في الأرض، الذين لم يقدر بنو إسرائيل أن يحرموهم جعل عليهم سليمان تسخير عبيد إلى اليـوم» (الملوك الأول ٩: ٢٠ - ٢١).

(٣) شواهد أخطاء يربعام هي على التوالي:

- «لأجل أخطاء يربعام التي أخطأها والتي جعل بها إسرائيل يخطىء بإغاظته التي أغاظ بها الرب إله إسرائيل» (الملوك الأول ١٥: ٣٠).
- «فسرت في طريق يربعام، وجعلت شعبي، إسرائيل، يخطئون ويغيـظونني بخطايـاهم» (الملوك الأول ١٦: ٢).
- «وسارت في جميع طريق يربعام بن نباط، وفي خطيته التي جعل بها إسرائيل يخطىء=

جانب الأنبياء، فانضموا إلى أعداء هؤلاء الملوك، الخاطئين ومناهضيهم، وقضوا عليهم، وعلى أسرهم بالفناء، فسقطت الأسر المالكة في أفرايم الواحدة تلو الأخرى، بيت يربعام، وبيت بعشا، وبيت آخاب.

ولكن الأنبياء لم يحققوا غرضهم من هذه الثورات، إذ إن الملوك الجدد الذين استعان بهم هؤلاء الأنبياء للقضاء على سابقيهم سلكوا هم أيضاً في نفس «أخطاء يربعام» فلم يتحسن الموقف السياسي أو الروحي، بل ساء أكثر فأكثر، على أثر الثورات المتتالية التي تلطخت بالدماء البريئة.

وقد مني الأنبياء على الخصوص بخيبة أمل مريرة في ثورة ياهـو، فهذه الثورة التي كانت كلها في سبيل الله والتي كانت قصاصاً إلّهياً ضد أسرة آخاب، عباد بعل (الملوك الثاني ٩: ٦ـ٧،٢٦/١٠: ١٦) قد تكشفت أيضاً عن أنها كانت كالثورات السابقة، لا فائدة منها، ولا إصلاح من ورائها لحال الأمة، إذ إن «بعل» قد اجتث من إسرائيل، ولكن أخطاء يربعام بقيت كما كانت (الملوك الثاني ١٠: ٢٨، ٢٩، ٣١/١٣: ٢، ١٤: ٢٤).

وفي نهاية الأمر بدأ الأنبياء وشيعتهم يتبينون أن لا سبيل إلى إصلاح حال الدولة عن طريق الثورات والاغتيالات وحمامات الدم، وأنه لا سبيل إلى نجاة الأمة روحياً على أيدي الملوك والرؤساء وحدهم، فالأمة إنما تستطيع أن تحقق لنفسها هذه النجاة بفضل جهودها المتكاملة المتضافرة، وهكذا تبين الأنبياء في نهاية الأمر أنه لإصلاح حال الأمة، لا يكفي أن يقوم النبي بوعظ

= لإغاظته الرب إله إسرائيل، بأباطيلهم». (الملوك الأول ١٦: ٢٦).

ـ «وكأنما كان أمراً يسيراً أن يسلك في خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابيل ابنة أتبعل ملك الصيداويين زوجة، وسار وعبد بعل وسجد له» (الملوك الأول ١٦: ٣١).

ـ «وعمل الشرّ في عيني الرب، وسار وراء خطايا يربعام بن نباط الذي جعل إسرائيل يخطىء، لم يحد عنها» (الملوك الثاني ١٣: ٢).

ـ نفس الفكرة والألفاظ تقريباً، (الملوك الثاني ١٣: ١١).

ـ نفس الفكرة والألفاظ أيضاً (الملوك الثاني ١٤: ٢٤).

الفرد وتوجيهه، بل عليه أن يعظ الجميع، وأن يتحدث على مسمع الأمة بكرة وأصيلاً حتى تعود إلى سواء السبيل. وهكذا عاد الأنبياء إلى اقتفاء أثر موسى وصمويل في أيامهما، بإلقاء خطبهم وإعلان نبواتهم ومواعظهم على الملأ جاعلين من أنفسهم القادة الروحيين للأمة جمعاء.

المقالة الثالثة

الدولة الصهيونية
والتعصب العنصري

الدَّوْلَة الصَّهْيُونيَّة

والتعصّب العنصري

الصهيونية العنصرية:

قامت الصهيونية على مزاعم تراثية تدور كلها حول محور التعصب الديني والتعصب العنصري. ولم تكن هذه وجهة نظر اليهود في كافة الأقطار والأزمان. بل كانت نعرة ترتفع من حين لآخر، وكانت زعماً لا تؤيده الحقائق العلمية، ولا تلتف من حوله عواطف بني إسرائيل فيما عدا الطبقات المتخلفة جداً منهم، التي طحنها البؤس، وسحقها احتقار الأمم الأخرى.

والذي يدل على أن هذه النعرة العنصرية الواقفة على قاعدة من المأثورات المقدسة إنما هي ظاهرة مَرَضية في الشخصية الإسرائيلية، أنها لا تظهر إلّا في الأيام الشداد التي يواجهها اليهود، ويجدون أنفسهم في أثنائها محرومين من حق الحرية والمساواة بل من حق الحياة أحياناً، كما حدث في ظل الفاشية والنازية في زمننا هذا.

وصهيونية القرن العشرين تعتبر استمراراً لتلك العقدة القديمة التي نشأت في الوجدان اليهوديّ في عصور الاضطهاد. ومع ذلك فإنّ انبثاقها في القرن العشرين بالذات قد عرَّضها لصراعات مريرة من المفكرين اليهود الفضلاء أنفسهم، قبل أن تتعرض للصراع الفكري والقومي والعسكري من جانب ضحاياها في الشرق العربي، ومن استطاع أن يتفهم قضيتهم من أمم الأرض وسط أبواق الدعاية المنسقة بين الرجعية والاستعمار وبين هذه

الصهيونية الداخلة في تلك السوق القذرة، سوق استعباد الشعوب واحتلال الأوطان وتحدي إرادة الجماهير الكبيرة من البشر.

مفكرون يهود يقاومون العنصرية اليهودية:

وعندما بدت أولى بوادر الحقد اليهودي على أمم العالم، وأعراض العزلة والتقوقع في داخل مختارات تراثية ومناقبية تصلح لأن تكون سوراً حصيناً يحيط باليهود، ظهر من بينهم دعاة مصلحون، يقاومون هذا الداء العضال، منذ أيام الدولة العربية الإسلامية وما بعدها.

فالطبيب اليهودي الأندلسي موسى بن ميمون (١١٣٥ - ١٢٠٤ م) على الرغم من اعتزازه بقومه كان أيضاً شديد الاعتزاز بمعرفته بآثار الفلاسفة اليونان والمسلمين، وكان في كتاباته الدينية يصرح بأن الذين يؤمنون بالله ويفعلون الخير ويتجنبون الشرّ في هذه الدنيا لهم حظ في الآخرة وإن لم يكونوا من بني إسرائيل، ولم يؤمنوا بالتوراة. كما كان في تعليمه الطب لا يجيز تلميذاً من تلاميذه إلّا بعد أن يقسم أمامه أن يعالج المرضى بدون تمييز بين أديانهم وأجناسهم وألوانهم، ومن غير أن تتغير معاملته لفقيرهم عن غنيهم. ولأن الرجل كان بالنسبة للعصور الوسطى متحرراً إلى هذا الحد، فإن يهود المغرب والأندلس اضطهدوه حتى ضاق ذرعاً بتلك البلاد وهاجر إلى القاهرة، وأصبح كبير أطباء القصر الأيوبي فيها.

* * *

وتمضي الأجيال، ويعاود اليهودَ في أوربا داؤهم القديم، فيقوم الفيلسوف اليهودي الهولندي باروخ سبينوزا (١٦٣٢ - ١٦٧٧ م) ليرفع من جديد راية المقاومة لتلك الأفكار التعصبية الفاسدة. واعتبر الجامدون والحاقدون من اليهود دعوة سبينوزا إلى ترك التعصب العنصري كفراً.

كان سبينوزا يقول إن اليهودية ليست وطناً ولا قومية ولا جنساً، ولكنها عقيدة وشريعة تمكن ممارستها في أي مكان مع بقاء اليهودي مواطناً مخلصاً

لمولده ومسقط رأسه، وكان يقول إن الله لم يشترط لتصح صلاة اليهود أن يسمعها منهم في أورشليم، وإن المعبد اليهودي في أمستردام بالنسبة له معادل تماماً عند الله لهيكل سليمان في فلسطين. وقد ترتب على ذلك أن أعلن المتعصبون من رجال الدين طرده من حظيرة المؤمنين وإهدار دمه. واضطر إلى أن يترك أمستردام إلى قرية صغيرة يسهل على تلاميذه أن يحرسوه فيها من عدوان القتلة والسفاحين من المتعصبين. وهناك استمر في نشر مذهبه كما استمر في كسب رزقه من صناعة العدسات البلورية.

* * *

وعلى مشارف التحرك الصهيوني في العصر الحديث ظهر رائد آخر من رواد الحرية الإنسانية العامة، ومن صميم اليهود أيضاً، هو موسى مندلسون (١٧٢٩ ـ ١٧٨٦ م).

كان مندلسون من ذلك الشباب اليهودي النازح من شرق أوربا، هرباً من حياة التزمّت والجمود والتعصب في الحي اليهودي المغلق (الجيتو). وعند وصوله إلى برلين استطاع بعد الجهد الجهيد أن يحصل على حق الإقامة بها، والتحق بجامعتها ودرس الفلسفة، وبرع فيها حتى أصبح من قادة الفكر في أوربا كلها.

وفي هذا الوقت المبكر تنبه مندلسون إلى أنّ اليهود قد حبسوا أنفسهم في جيتو أبشع من ذلك الذي يسكنونه بأشخاصهم وأجسامهم، وهو الجيتو الفكري. وراح منذ سنة ١٨٧٣ ينادي بالتحرر المدني لليهود، والفصل بين الدين والقومية، وهكذا كان مجدداً لدعوة سبينوزا، وكان أطول باعاً وأبعد صوتاً، فاستطاع أن يُسمع دعوته في آفاق كثيرة من أوربا الشرقية والغربية. وهنا تكتل المتعصبون من اليهود ضده ووصموه ـ هو أيضاً ـ بتهمة الكفر، وحرموا كتبه، بل كانوا يبحثون عنها في الأسواق ويعدمونها قبل أن تصل إلى أيدي القراء. ومع ذلك بقي الرجل مؤثراً بأفكاره وكتاباته إلى وقت طويل ربما لم يكن من المبالغة أن نقول حتى الآن عند كثير من المتحررين من بني

إسرائيل. وهو أمر جعل مندلسون هدفاً لحملة غوغائية من المتزمتين الصهاينة، هاجموا فيها سلوكه وعقيدته وخاضوا في شخصه وفي أسرته وعرضه.

* * *

وبعد، فكيف استطاعت الصهيونية أن تبني لنفسها هذا الصرح السياسي الضخم على الرغم من أنه لم يتهيأ لها في كل تاريخها مفكر واحد من جوهر موسى بن ميمون أو سبينوزا أو مندلسون؟ وأكثر من ذلك غرابة أن تقوم من صميم هذه الصهيونية العنصرية الحاقدة دولة في العصر الحديث تظفر بعضوية الأمم المتحدة، بل بتأييد وصل إلى الأغلبية في كثير من المواقف في المجتمعات الدولية.

والكل يعرف أنها دولة عنصرية، والكل متفق على أن توجد في هيئة الأمم المتحدة لجنة خاصة لمناهضة التعصب الديني والعنصري في العالم. وقد كتب العالم الفرنسي ميشيل ليريس بحثاً بعنوان «المسألة العنصرية أمام العلم الحديث: الجنس والحضارة»، وتبنّت هذا البحث هيئة الأمم المتحدة فطبعته عام ١٩٥١. ويختمه مؤلفه بنتيجة هامة جداً هي أنه ليست هناك عصبية عنصرية تقوم بطبيعتها وبالغريزة في نفس الإنسان. وإنما تغرسها فيه أمور مصطنعة، عن طريق التربية والنشأة والانحراف بالثقافة نحو هذه الوجهة الضارة الضالة.

الفرق بين النعرة العنصرية والاعتزاز القومي:

وهناك فرق طفيف ولكنه هام ودقيق بين النعرة العنصرية وبين الاعتزاز القومي. فهذا الأخير حميد ومطلوب لقيام المجتمعات واستمرارها، بينما الأول خطير وهادم للسلام والإخاء بين البشر. الاعتزاز القومي هو عاطفة من الترابط والتضامن تعين على التآخي والتعاون المثمر، والتواصي بالخير والكف عن الأذى. وما دامت هذه العاطفة لا تبرر عدواناً، ولا تدفع إلى بَغْي فإنها تمثل قوة دافعة للحضارة في مسيرتها التاريخية الطويلة، تؤمِّن بها خطواتها، وتدرأ بها الأخطار التي تهددها. بينما النعرة العنصرية عاطفة انطواء حول عرق من

النسب يتخيل الإنسان أنه ينتمي إليه، فيدفعه ذلك إلى إضمار الحقد والاحتقار للعناصر البشرية الأخرى، واعتقاد التفوق والمزية في الأصل الذي يتعصب له الإنسان.

ولا تظهر هذه النعرة إلاّ في مجتمع مصاب بعقدة الضَّعة، مع تأخر فكري وثقافي، وجمود روحي مزمن. فهي إذن حالة مرضية فريستها مجموعة بشرية ضعيفة تقع في وسط محيط من مجتمعات أقوى منها. فترى في العزلة والانطواء ورفض الأخذ والعطاء مع المجتمعات القوية الأخرى الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الكيان. فتخترع لنفسها نسباً محدّداً تدَّعي أنه لم يختلط بغيره، معلّلة ذلك بأن قوة غير منظورة قد رشحتها لدور قيادي دون البشر جميعاً، وأنها بفضل تلك القوة الخفية تبقى نقية الأعراق عبر الزمان والمكان. ومع الزمن تتراكم حول هذا الشعور أساطير وحكايات وجداول للأنساب ومناقب للآباء والأجداد، تتخذ بريقاً سحرياً في عين السُّذَّج والجهال من عامة هذه المجموعة البشرية، فيقوم حول ذلك كله بناء خرافي من العقائد العنصرية الانعزالية الخطيرة على الحضارة وعلى الإنسانيّة جمعاء.

والذي يلخص إصابة اليهود بهذا المرض ما يردده شيوخهم في العصور المظلمة، ونجده أكثر من مرة في التلمود والمدراش من مثل قولهم: (**كما أن العالم لا يمكن أن يعيش بلا هواء، فإنه لا يمكن أن يعيش بدون إسرائيل**)، (التلمود البابلي، عبوده زاره: ١٠/ب - تعنيت: ٣/ب - مدراش يلقوط، زكريا ٩٦٩).

ولو رجعنا إلى أقدم الأمم في الحضارة لوجدنا أن تماسكها يرجع إلى اعتزاز قومي غير مغلق على نَسَب محدّد. فالمصريون القدماء بدأوا تاريخهم المسجل بتوحيد عشائر الجنوب والشمال تحت تاج واحد دون ذكر لأنسابها. ثم إنا نجد الحضارة الفرعونية بعد ذلك مفتوحة الأبواب للشعوب المجاورة، يأخذون منها الفن والدين والصناعات والحرف والشرائع والنظم الإدارية، وإذا وفد على مصر وافدون من الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب

سرعان ما كانوا يندمجون في الأمة، ولم يكن ذلك يعكّر تماسكها القومي. وكذلك كان البابليون الآشوريون في العراق. وتطول بنا الجولة لو أننا تعقبنا الأوضاع الاجتماعية العادية التي نشأت في العصور الأولى للبشر عند الهنود أو اليونان أو الصينيين أو غيرهم من تلك الأمم العريقة البريئة من عقدة الذل والوضاعة.

النعرة العنصرية قديمة في اليهود:

في هذا الجو من التطور الطبيعي يظهر العبريون على مسرح التاريخ القديم، وكان من الممكن أن يظل أولئك الناس مغمورين لا شأن لهم ولا خطر منهم، لولا أنهم اصطدموا منذ البداية بهذه الدول العظمى المتحضرة القوية.

ففي مصر بُعث موسى عليه السلام برسالة التوحيد، وتعتبر شخصية هذا الرسول العظيم من المشاكل التي لم يستطع التاريخ حتى الآن أن يلقي عليها ضوءاً يقينياً واضحاً[١]. ومع ذلك فإنه لا شك في أن دعوة موسى كانت من الدعوات الأولى إلى تحرير البشر، كل البشر، من العبودية والوثنية. لا شك في أنه دعا الناس إلى عبادة إلّه واحد لا تدركه الأبصار، وإلى نبذ الأصنام، وترك الشرك بهذا الإلّه الواحد. ودعاهم كذلك إلى الكفّ عن تأليه فرعون، وحرم عليهم أن يعبدوا مخلوقاً مثلهم. فهو بذلك قد كان من أولئك المصلحين والمحررين الذين تحدَّوا الجهالة كما وقفوا في وجه الطغيان وقفة لا هوادة فيها.

ولكن اليهود الذين لم يسجلوا ما عندهم من المأثور عن موسى إلّا بعده بألف سنة، عندما طحنهم السبي البابلي، وأذلّهم بختنصر، وخرَّب مساكنهم وشرَّدهم منها، أرادوا أن يجعلوا من موسى ستاراً يدسون وراءه من عقائد الحقد والقماءة ما لم يقل به ولم يدع إليه. وفي مقدمة ذلك ادّعاؤهم أنه لم يرسل لا إلى فرعون ولا إلى المصريين ولا إلى غيرهم

(١) بل إن القرآن الكريم أظهر شخصية هذا النبي الكريم على أتم وجه وأجلى صورة (الناشر).

من الأمم، وإنما جاء برسالة خاصة إلى بني إسرائيل وحدهم. وكان ذلك، مع مرارة الهزيمة والسبي، منطلقاً لفلسفة منحرفة أساسها العنصرية الخرافية الكارهة لكافة شعوب الأرض. وبدا اليهودي المريض النفس بعد ألف سنة من موسى حريصاً على احتكار التوراة، كما كان حريصاً على احتكار البضائع والأموال.

ولإحكام عقيدة الحقد هذه أحدثوا في الدين أركاناً جديدة لم تكن فيه. فصلوات عيد الفصح عندهم، وهو ذكرى نجاة موسى وقومه من فرعون، قد تحوَّلت إلى مجالس للدعاء على الأمم الأخرى والخوض فيها والنيل منها. أما هم فكانوا مع اعترافهم بأنهم قوم معاندون ومتمرِّدون مسرفون في الفسق والفجور وإغضاب الله بالكفر، يعتقدون أن الله قد يعاقب الأمم الأخرى بالإبادة، وقد يستأصل شعوباً بأسرها من جذورها، أما هم فيؤدبهم ثم يمهد لهم سبيل السيادة على البشر جميعاً.

ولكي تبقى النعرة العنصرية سياجاً حول اليهود مثل أسوار الجيتو، اهتموا بالانتساب إلى أسلاف كبار في مقدمتهم يعقوب بن إسحق بن إبراهيم الذي سُمِّي إسرائيل لأنه كما يقول الرواة في سفر التكوين قد اجتاز اختباراً في المصارعة أمام الله أثبت فيه قوته لدرجة أنه غلب الله نفسه، تعالى عن ذلك. فسمّي في تلك الليلة إسرائيل، أي قوة الله.

نسبة اليهود إلى سام بن نوح حديثة العهد:

أمّا نسبة اليهود إلى سام بن نوح فهي حديثة العهد ترجع إلى عام ١٧٨١ م عندما اقترح اللغوي الألماني «شلوتزر» استعمال كلمة الجنس السامي للدلالة على مجموعة الشعوب التي عاشت في الطرف الغربي من القارة الآسيوية، مرتبطة لغوياً وتاريخياً وحضارياً. وهي التي تضم العرب والبابليين والآشوريين والآراميين والسريان واليهود وبعض قبائل الحبشة ومن ينضوي تحت هذه الكتلة من البشر.

ويقول العالم الفرنسي الأب هنري فليش إنه ينبغي ألا نفهم من

استعمال كلمة السامية أيَّ شيء أكثر من مجرد اصطلاح لتيسير الأمر على الباحثين، دون القصد إلى أية دلالة عنصرية.

انتماء اليهود جميعاً إلى عنصر واحد أمر لا يؤيده العلم:

ويذهب عالم الأنثروبولوجيا السويسري يوجين بيتار إلى ما هو أشد من ذلك حسماً، إذ يقول إن اليهود جميعاً بعيدون عن الانتماء إلى (عنصر) يهودي... فنحن لا نستطيع أن نعتبر اليهود الآن أعضاء في مجموعة بشرية متحدة العنصر، ولا حتى يهود فلسطين التي جلبت إليها الحركات الصهيونية إسرائيليين بدون أي انتقاء. فاليهود إذن ينتمون إلى طائفة دينية واجتماعية انضمت إليها في جميع العصور أخلاط من أجناس مختلفة. ومن الممكن أن يكون أولئك المتهوِّدون قد جاؤوا من كل الآفاق التي يعيش فيها البشر، فمنهم «الفلاشة» الأحباش، ومنهم اليهود الألمان الذين تتوفر فيهم نفس المميزات العضوية لسائر أبناء الجنس الجرماني، ومنهم يهود «التاميل» وهم يهود سود البشرة من الهند، كما أن منهم اليهود «الخزر» الذين يفترض أنهم من الجنس التركي. وفي خلال فصل كامل خصصه هذا العالم لمناقشة اليهودية وحدها، ناقش ما يقوله المدعون بهذه العنصرية من اليهود ومن أعدائهم المنادين باللاسامية، على ضوء التشريح وأبحاث السلالات الصريحة والمهجنة، وانتهى أخيراً إلى أن هذه العنصرية اليهودية حديث خرافة. (يوجين بيتار: الأجناس البشرية والتاريخ، باريس ١٩٢٤ ـ الفصل الرابع من الجزء الثالث: اليهود، ص ٤١٣ ـ ٤٣٢).

ثم يأتي من بعده العالم والطبيب اليهودي المشهور زيجموند فرويد، فينشر كتاباً صغيراً أحدث ضجة في الأوساط اليهودية كلها، بعنوان: (موسى وعقيدة التوحيد)، وفيه يهدم العقيدة العنصرية اليهودية من الأساس، ويؤكد أن موسى كان مصرياً، وأن الذين خرجوا معه وسُمُّوا فيما بعد بني إسرائيل، كانوا شيئاً آخر غير العشيرة الصغيرة التي جاءت إلى مصر مع يعقوب قبل ذلك بأجيال، عندما كان يوسف وزيراً لفرعون. فهؤلاء الناس الذين خرجوا

مع موسى كانوا خليطاً من البشر، من العبيد وأسرى الحروب والأجانب المتبرمين بطغيان فرعون. وهم إنما رضوا بالخروج من أرض مصر مع موسى لأنهم كانوا لا يملكون شيئاً في البلاد، بل كانوا أجراء يعملون لقاء قوت يومهم فقط. ولم يكن مع موسى من المصريين غير السبعين رجلاً الذين اختارهم، وجعل لهم الرياسة والقيادة لهذه الثورة التي فجرها ضد الوثنية والطغيان الفرعوني.

وسواء أكان الأمر كما يقول فرويد أم كان خلاف ذلك(١)، فالذي لا شك فيه أن النعرة العنصرية التي نادى بها اليهود بعد موسى إنما كانت من اختراعهم هم، ومن خلالها حولوا ذكرى الخروج كما قلنا إلى مناسبة لتقوية هذا الشعور العنصري، وتعميق الأحقاد ضد الأمم الأخرى.

أعياد اليهود تنضح بعنصريتهم:

وليس هذا في أعياد اليهود بالمثل الوحيد لجعل شعائر العبادة مناسبة للعدوان. فعندهم من الأعياد الحزينة والمرحة ما يبدو فيه هذا الشعور صارخاً يستفز كل ذي نفس محبة للعدل والسلام بين الناس. فاليوم التاسع من شهر آب اليهودي هو أيضاً فرصة لإيقاد نار الكره للبشر جميعاً، وصبّ اللعنات عليهم. فقد راح القدامى من كهنتهم يحسبون الأيام والشهور في التقويم العبري كما يحلو لهم، وبذلوا الجهد في التحريف والتزييف حتى جعلوا هذا اليوم التاسع من شهر آب ذكرى مزدوجة لأحزان وأشجان عظيمة.

فهم يقولون إنه في ذلك اليوم اقتحم بختنصر الكلداني في القرن السادس قبل الميلاد مدينة أورشليم وأحرقها ودمر هيكل سليمان، وساق

---

(١) الحق خلاف ما يقوله فرويد، فموسى عليه السلام كان إسرائيلياً وبُعث في بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ ولقد طلب من فرعون أن يسمح له بالهجرة ببني إسرائيل فقال له: ﴿فأرسل معي بني إسرائيل﴾ ولقد أخبر الله سبحانه بأن من خرج مع موسى من مصر هُمْ بنو إسرائيل فقال: ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ (الناشر).

اليهود إلى المنفى في أرض بابل وهم أذلة منهزمون مستعبدون. وقالوا إنه في ذلك اليوم نفسه من سنة ٧٠ ميلادية اقتحم الروماني تيتوس الهيكل الثاني الـذي أقامه عزرا ونحميا ودمّره، وشرّد اليهود من جديد. لذلك يعلنون الحداد والصوم في هذا اليوم، ويقفون بحائط المبكى يذرفون الدموع لأنهم لم يثأروا ممن ضربوهم وشرّدوهم. ويجعلون صلواتهم في ذلك اليوم فيضاناً من البغضاء والمرارة والكراهية لسائر الناس، ويستمر ذلك حتى الآن.

وإذا كانت الأعياد الحزينة فرصة عند أولئك المتعصبين للتهديد والوعيد وإعلان النقمة على العالم، فإن كثيراً من أعيادهم البهيجة لم تسلم من عدوان تلك القلوب المريضة. فهي مناسبات للسكر والعربدة والشمـاتة بالكوارث التي تقع بالأمم الأخرى، والفخر بما تناقلوه من أخبار المجازر التي سفكوا فيها دم غير اليهود.

وأبرز أمثلة هذه الأعياد عيد فوريم أو بوريم، الذي يسميه الأوربيون الكرنفال اليهودي، ويسميه القدامى من علماء المسلمين: عيد المسخرة. وهو يقوم على أسطورة تنسب إلى فترة وجود اليهود في المنفى في بابل وبلاد فارس، بعد أن أسقط قورش الإيراني امبراطورية الكلدان وورثها من بعدهم. وتتلخص الحكاية في أن الملك الفارسي كسركسيس ـ أحشويـروش في الفولكلور اليهودي ـ كان يقيم في قصره الفاخر في عاصمته شوشن الواقعة في إقليم الأهواز، وكان يعيش فيه مع زوجته الملكة وشتى، وكان ملكاً شديد التعلق بمظاهر الترف والملذات والشهوات. وكان اليهود قد حظوا عند أباطرة الفرس بمكانة مرموقة، بعد أن ساعدوهم بالتجسس والمؤمـرات وأعمال التخريب والقمع والإرهاب على الاستيلاء على منطقة الشرق الأوسط كلها تقريباً: ساعدوا قورش على احتلال العراق والشام، وساعدوا قمبيز من بعده على احتلال مصر. وهنا انتابهم الغرور وظنوا أنهم يملكون الأمر كل الأمر بأيديهم. ولكن أحشويروش كان له وزير، اسمه هامان في هذه القصة، يعرف مكايد اليهود، ويكرههم، ويحاول الحد من نفوذهم. وكانت زوجته،

واسمها زارش، تساعد زوجها في سياسته هذه. أما في الجانب اليهودي فكان هناك مردخاي، وكان يشغل وظيفة في القصر الملكي، وكانت له ابنة عم يتيمة الأبوين يتولى تربيتها. قال الراوي: (فكان مربياً لهداسة - أي أستير - بنت عمه، لأنه لم يكن لها أب ولا أم. وكانت الفتاة جميلة الصورة وحسنة المنظر. وعند موت أبيها وأمها جعلها مردخاي ابنة له) (أستير ٢ : ٧).

ولما اشتد اضطهاد هامان لليهود، فكر مردخاي في أن يتخذ من قريبته الجميلة سلاحاً يقضي به على الوزير وجماعته. وباختصار تعرضت أستير للملك، واستجاب هذا لمفاتنها. وذات ليلة من ليالي الربيع - شهر نيسان - والملك واقع تحت تأثير الخمر والإغراء اليهودي الذي تغدقه عليه أستير من غير حساب، تمت المؤامرة وحصلت الحسناء اليهودية على أمر بصلب هامان، بعد أن ادعت أنه كان قد أعد خشبة ليصلب عليها مردخاي، جاعلاً من ذلك فاتحة مذبحة في اليهود. «فقال الملك: اصلبوه عليها. فصلبوا هامان على الخشبة التي أعدّها لمردخاي، فسكن غضب الملك» (أستير ٧: ١٠).

وفي تلك الليلة قتل هامان وامرأته وأبناؤه العشرة وخمسمائة رجل من رجاله. واستمر القتل والذبح بأمر مردخاي وأستير حتى قضوا على خمسة وسبعين ألفاً من الفرس. واستغرق ذلك نحو عام كامل، إذ تقول القصة إن حمام الدم هذا الذي بدأ في شهر نيسان كما قلنا لم ينته إلّا في شهر آذار من السنة التالية. «فاجتمع اليهود الذين في شوشن في الثالث والربع عشر منه، واستراحوا في الخامس عشر وجعلوه يوم سكر ومرح. ولذلك جعل اليهود الذين في الريف، يسكنون بلداناً غير مسوَّرة، اليوم الرابع عشر من شهر آذار للفرح والشرب، ويوم عيد، يرسلون فيه الهدايا بعضهم إلى بعض» (أستير ٩: ١٨، ١٩).

وقد وصل من تعظيم اليهود لذكرى هذه المؤامرة، أنهم كتبوا سفر أستير من عشرة فصول - الأخير منها قصير جداً - وجعلوا له مكاناً بجانب التوراة

في معابدهم، وهو الوحيد الذي يتمتع بهذه المنزلة، مع أنه نص تحيط بأصالته التاريخية شكوك كثيرة. وأغرب من ذلك أنه من أوله إلى آخره لا يذكر فيه اسم الله مرة واحدة.

ويلاحظ العلاّمة الفرنسي أرنست رينان تأثر العقائد اليهودية هنا بتقاليد الفرس القدامى فيقول: (كان للفرس يوم للبهجة يحتفلون به في آخر السنة، بإقامة ولائم الطعام والشراب وتبادل الهدايا. وكان هذا العيد يسمى عندهم (فوردي). وعنهم أخذه اليهود بمثابة عيد غير ديني، يحتفلون به مثل الفرس في الشهر الثاني عشر من السنة. فكانوا يقيمون الأفراح والولائم التي يستحب فيها السكر. وسمَّوه باللغة الآرامية (بورداى) وبالعبرية (فورديم) التي أصابها تحريف يسهل شرحه لغوياً بحيث أصبحت في النهاية (فوريم) أو (بوريم).

ولم يكن هذا العيد يحظى بطقوس في المعبد، لأنه في بدايته لم يكن دينياً. ثم أرادوا أن يخصوه بأسطورة (أجاده ـ بالعبرية) مميزة له، ومن هنا كتبوا حوله قصة أستير. لأن كل عيد عند اليهود يقوم على حكاية متصلة بتاريخهم، وكانت لكل حكاية صحيفة مكتوبة بوقائعها يسمونها (مجلة). فتصوروا أن عيد الكرنفال هذا على صلة بانتصار ضخم لبني إسرائيل، واندحار رهيب لأشد أعدائهم مراساً. ولما كانت بداية هذا العيد غير دينية ، فقد تعمدوا فيه عدم ذكر الله في صحيفة القصة، حتى لا يتسرب إليها أيّ اعتبار ديني. ومن هنا كان ميلاد سفر أستير العجيب، فهو سفر شرس فاجر مثير للغيظ. وعلى الرغم من ذلك أصبح برغم أنفه سفراً دينياً.

فإسرائيل يبدو في هذا السفر جنساً رهيباً من الناس، يقتل أعداءه بقوة خفية، بحيث يفزع الناس من الاقتراب منه. ولم يحدث قط أن الأنانية القومية ظفرت بتعبير في مثل هذه الوقاحة. فالنذالة، والتعلق بالوسائل الخسيسة، واختفاء أيّ وازع خلقي، وكراهية بقية الجنس البشري تصل إلى الذروة في هذه القصة، بحيث تصور المثل الأعلى لليهودي البغيض،

وبمجموعة مركزة من مميزاته الكريهة، وبحذف كامل لكل النواحي الخيرة فيه. فما أبشع طبيعة أستير ومردخاي، وما أخبثهما، وما أشد نذالتهما، وما أقساهما. فقتل الأعداء لا يكفي هذه المرأة الشريرة، بل تلجأ إلى تشويه الجثث، حتى جثث الأطفال. ومؤلف القصة لا يبدو منه إزاء تلك الوقائع الرهيبة غير الارتياح). (أرنست رينان: تاريخ شعب إسرائيل - جـ ٤، ص ١٦٠).

* * *

وإذا كانت العنصرية تبدو من خرافات العبريين الأقدمين بعد تعرض قومهم للهزيمة والتشريد، في الطقوس والأعياد كما رأينا، فإنها أيضاً تبدو واضحة من خلال أحكام شرعية أساسية مثل الدخول في الدين اليهودي نفسه. فقد جعلوا من عقيدتهم ديناً وجنسية في آن واحد، لا ينفصم أحدهما عن الآخر. وبناءً على ذلك أصبح الدين اليهودي ديناً غير تبشيري. أي أن اليهودي غير مكلف بنشره بين الأمم الأخرى.

اليهود يحتقرون غيرهم من الشعوب ويطلقون عليهم «جوييم»:

بل إنهم زادوا على ذلك فجعلوا في اللغة العبرية لفظة تدل على أي شعب من الأمم الأخرى غير اليهودية هي (جوى) بينما شعبهم يميز عادة بكلمة (عام). واقترنت كلمة جوى في عقولهم بالزراية والاحتقار، فإذا قال اليهودي عن شخص أو شيء إنه (جوى) فهو يعني بذلك أنه همجي بربري يجمع القذارة والنجاسة والحقارة.

وإذا فكر واحد من (الجوييم) في اعتناق اليهودية فإن الحاخام يبدأ بامتحانه وسؤاله والتشديد عليه، لعله يفلح في صرفه عن الدخول في شعب الله المختار. لكن إذا نجح هذا الغريب في الامتحان تمّ تهويده دون أن ينال حق المساواة حتى مع الزنادقة من بني إسرائيل. ويميز باسم خاص هو (جير) أي الجار، أو المستجير، أو الداخل تحت الحماية. أي أنـه يعتبر من الموالي، فيحرم عليه وعلى سلالته من بعده إلى يوم القيامة أن يصاهروا أية

أسرة يهودية تحمل لقب (لاوى) ـ حالياً: ليفـي ـ أو (كوهين)، لأن هذه الأسر، فيما يزعمون، تنحدر من سبط اللاويين الذي منه موسى وهارون، والذي بقيت فيه الكهانة ميراثاً دائماً. كذلك يحرم على هذا المتهود أن يتولى الإمامة أو القضاء أو القيادة السياسية أو العسكرية. وله في الصلاة صيغ معدلة بحسب المنزلة السفلى التي وضع فيها. كما أنه إذا مات ولم يكن له أقارب من المتهودين مثله لم يرثه أحد، وإنما تؤول تركته إلى الخزانة العامة. وإذا كان في تركته عبيد فإنهم يحررون بعد موته. ويجوز لهذا المتهود زواج اللقيطة وبنت الزنا، بينما يحرم التلمود هذا على اليهودي الأصيل.

الصلف العنصري اليهودي يتجاوز كل الحدود:

ولو أننا تتبعنا تاريخ الصلف العنصري اليهودي لوجدناه يتجاوز كل الحدود في عصور ما بعد الكتاب المقدس. وهو أمر طبيعي ما دام الأصل فيه أنه رد الفعل للشعور المَرَضي بالحقارة. فهذه العصور التي أعقبت عصر الكتاب المقدس كانت كلها عصور شقاء لليهود إذ يعيشون في القرن الخامس قبل الميلاد أذناباً للفرس، وفي القرن الرابع يصبحون رعية للإسكندر الأكبر اليوناني، ثم لخلفائه السلوقيين في الشام حيناً والبطالسة في مصر أحياناً، ثم تقع عليهم قبضة الرومان في القرن الأول قبل الميلاد. ثم يتآمرون على السيد المسيح عليه السلام فيكون جزاؤهم بعد سنين قلائل الطرد والتشريد والبقاء وسط أمم أخرى في أركان العالم كله، فلا تقوم لهم قائمة حتى عام ١٩٤٨، الذي ارتفع فيه علم الدولة الصهيونية المغتصبة في فلسطين.

وفي بؤرة المهانة والتشرد على مدى ما يقرب من ألفي سنة يرفض اليهود التآخي مع غيرهم من الأمم. ويشجعهم كهنتهم على هذه العزلة. فمن الأقوال المأثورة عندهم أنهم امتازوا دون سواهم بثلاث هبات ربانية هي: التوراة، وفلسطين، ثم الجنة في الآخرة. ورووا هذا الكلام عن أكثر من واحـد من علمائهم القـدماء في التلمـود والمدراش (مثـلاً: شمعون بن يوحاي ـ التلمود، البركات: ٥/أ). وزعم اليهود أنهم أبناء الله، وأحباؤه.

يقول الرِّبِّي عقيبا في المشنة (وصايا الآباء ۱۸/۳): (**بنو إسرائيل أحبّاء الله لأنهم يدعون أبناءه، بل هناك برهان أعظم على هذا الحب، وهو أن الله نفسه قد سماهم بهذا الاسم في قوله في التوراة: أنتم أولاد للرب إلّهكم**). وهو يشير بذلك إلى مواضع كثيرة في التوراة أوضحتها الآية التي استشهد بها (تثنية ١٤ : ١)، وفي الآية التالية يتأكد الغرور الإسرائيلي بهذه العنصرية في قوله: «**لأنك شعب مقدَّس للرب إلهك، وقد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً، فوق جميع الشعوب التي على وجه الأرض**».

نشوء اللاسامية كان رداً على العنصرية اليهودية:

وإزاء هذه الدعاوى العريضة، والسلوك الذي اتسم به اليهود نتيجة لها، لم يكن متصوراً أن تقف الأمم الأخرى - الجوييم - التي ينصبّ عليها احتقار اليهود وحقدهم، مكتوفة الأيدي. بل اندلع رد الفعل الطبيعي في الحركات والمذاهب والأفكار التي تندرج تحت ما يسمى «اللاسامية» ودلالتها باختصار «مناهضة اليهود». وهي حركة نادى بها العديد من المفكرين والساسة الأوربيين لتكون رداً على العنصرية اليهودية، وجزاءً من جنس العمل.

وهكذا نجد أنفسنا أمام مشكلة إنسانية ينطلق فيها الحقد من طرفين كل منهما نحو الآخر: العنصرية اليهودية، واللاسامية. وعلى الرغم من أن العرب أكثر أصالة في السامية من اليهود فإنه لم يخطر ببال الأوربيين أن يشملوهم بفلسفة اللاسامية. والسبب في ذلك هو أن أوربا المسيحية عندما عرفت العرب، عرفتهم دولة وحضارة، وتنظيماً اجتماعياً مستقلاً في وطنه قائماً بذاته. حاربوا الأوربيين، وحاربهم الأوربيون، وفتح العرب بلاداً في الغرب، وفتح الأوربيون بلاداً في الشرق، ولكن النضال كان يقع تحت راية الدولة وتحت راية الدين والحضارة، ولم يحدث قط بشكل عصبية عنصرية. أمّا اليهود فمنذ أن شردوا من فلسطين على يد الرومان في القرنين الأول والثاني من الميلاد وهم يعيشون في داخل مجتمعات العالم، وبخاصة المجتمع

الأوربي، رافضين أدنى أشكال التآخي معه، فضلاً عن الاندماج فيه. فكان اليهودي والحالة هذه هو المثل الوحيد والبغيض والطفيلي للجنس السامي في أوربا، بحيث أصبحت صفة السامية مقصورة عليه وحده.

وبدافع خفيّ تشبّث اليهود بساميتهم في أوربا، وقوّوْها من خلال استغلال جميع الظروف لمصلحتهم، حتى اللاسامية نفسها. وأبعدوا في هذا الحديث الذي طال قروناً مع الأوربيين ذكرى العرب أو غيرهم من الساميين. مع أنهم يعرفون يقيناً ـ أو يعرف مفكروهم وحكماؤهم على الأقل ـ أن ميزان الساميين له كفتان، وضع الزمن في إحداهما اليهود، وفي الأخرى وضع بقية الساميين مندمجين في العروبة العامة التي ورثت بالحضارة الإسلامية جميع الساميين في المنطقة.

وهم يعلمون أنه ما دام الأمر كذلك، وما دامت مسيرة التاريخ في هذه المنطقة نحو سبك الأمم السامية كلها في أمة واحدة، وأنه قد تم من ذلك أكثره، بحيث تقف العروبة والإسرائيلية الآن وحدهما وجهاً لوجه في انتظار الجولة الأخيرة. وهم يشعرون بالخطر الدائم الداهم من وراء هذا الاتجاه في التطور التاريخي، وقفوا في فلسطين إلى جانب الاستعمار والاستبداد وتأخير الحضارة هذا الموقف الذي سيبقى إلى الأبد صحيفة عار لإسرائيل. والعروبة قد استوعبت في كيانها المرن الرحيب، غير المبني على العنصرية العرقية، كل الساميين الأخر وغيرهم من سكان المنطقة. فليس من المعقول أن تأتي اليهودية آخر الأمر فتبتلع ذلك كله، بل المحتمل حسب منطق التاريخ هو عكس ذلك.

ومن هنا كانت خطط الدولة الصهيونية لتكريس عنصريتها الصهيونية حريصة كل الحرص على التدقيق التام في تجنب كارثة تكاد تكون محققة، وذلك بوسائل أهمها:

أولاً: تقوية النعرة العنصرية في داخل إسرائيل، ولدى اليهود الذين

يعيشون في الخارج. وبثّ الفكرة القائلة بأنّ اليهودية نسب وجنسية وقومية وديانة في آن واحد. وقد استغلوا في ذلك حتى آراء صهيونيين من المعارضين لحركة تيودور هرتسل وحاييم وايزمان، من أمثال آشر جينزبرج (آحاد هاعام)، الذي نادى في كتابه «مفترق الطرق» بأن الوطن القومي لليهود ليس بالضرورة أرضاً لها حدود كفلسطين، بل الوطن القومي الحقيقي المنيع الذي يستعصي على الغزو المسلح، الوطن الأبدي السرمدي، الذي لا تعصف به رياح الأزمات الاقتصادية أو الحروب، إنما هو في التراث الفكري والروحي والثقافي لليهود، في التوراة والتلمود أولاً وقبل كل شيء.

وبالرغم من أن هذه الفكرة كانت في وقت ما شوكة في جنب الصهيونية العالمية الاستعمارية العميلة للسياسات التوسعية، فإن قادة الصهيونية أنفسهم وجدوا فيها حافزاً جديداً لتطويق من لم يهاجر إلى فلسطين من اليهود، وهم يزيدون على سبعة أضعاف الذين هاجروا، داخل حظيرة العنصرية اليهودية.

وقد أعانهم على ذلك التنظيم التربوي السياسي الذي يسمى الاتحاد الإسرائيلي العالمي. وكانت وظيفته منذ إنشائه في باريس في النصف الثاني من القرن الماضي ـ وما تزال ـ فتح المدارس اليهودية في جميع أنحاء العالم لضمان تربية الطفل اليهودي في بؤرة هذه العنصرية مهما كان بعيداً عن تل أبيب. ومدارس هذا الاتحاد تعد الآن بالمئات في جميع أنحاء العالم. كذلك أخذت الصهيونية، عن طريق منظماتها في أوربا وأمريكا أولاً ثم عن طريق الوكالة اليهودية عندما كانت فلسطين تحت الانتداب البريطاني، وأخيراً على يد حكومة إسرائيل، في العناية بإحياء بعض التقاليد الشعبية التي تقوي الارتباط بفلسطين بين يهود الشتات.

* * *

ثانياً: تكافح دولة إسرائيل في الوصول إلى حدود آمنة. وهي لا تعني بذلك حدود الأرض فحسب، بل حدوداً سكانية بشرية أيضاً. فهي تحاول بكافة الطرق تصفية من بقي في داخل الأرض التي تسيطر عليها من الوجود

العربي الفلسطيني. وكانت دائماً تتصرف حيال اليهود الموجودين في البلاد العربية تصرفاً يدفعهم إلى الهجرة من تلك البلاد، بينما تقوم ـ لأغراض الدعاية فقط ـ بالصياح والصراخ بأن العرب هم الذين يقومون بتصفية اليهود من بلادهم.

والمثل الواضح على ذلك يهود المملكة المغربية، الذين كانوا يبلغون عدة مئات من الآلاف يعيشون مع العرب والبربر في سلام. وما أن أحست الهيئات المشرفة على السياحة في إسرائيل بأن الدولة التي أقاموها على عنصرية خرافية تنتسب إلى الشرق، يعوزها كل شيء من ملامح الشرق، ولاحظت أن السائح الأجنبي ـ والسياحة مورد أساسي لإسرائيل ـ تبدو عليه الخيبة والحسرة لأنه يرى هناك ما تعود أن يراه في الغرب بشكل فقير ومصطنع، راحت تحث يهود المغرب على تركه والهجرة إلى فلسطين.

وبدأ سماسرة الصهيونية يختارون من بين أولئك اليهود الشرقيين الحِرَفيين على الخصوص، من المدرَّبين على الصناعات التقليدية في النسيج والجلد والصدف والخشب والمعادن والفخار ونحوها، وكذلك الطباخين والمشتغلين بالغناء والرقص وما إلى ذلك.

ووصل أولئك اليهود الشرقيون إلى إسرائيل ففوجئوا بنظام محكم يكفل بقاءهم في عبودية الصهاينة. فهم في الحرب الواقفون في مواجهة الموت المحقق، وفي السلم يعيشون معزولين ومحرومين من أي شيء إلاّ البقاء في هذا النمط من الحياة الذي فرضته الصهيونية عليهم وعلى أولادهم.

ومن هنا تنبهوا إلى أنهم وقعوا في شرك من العبودية الاستعمارية لا يليق بكرامة الإنسان، وقام فيهم دعاة إلى التمرد والمطالبة بالمساواة، فإذا بالصهيونية تقف وجهاً لوجه أمام حزب جديد من اليهود الساخطين المعارضين الرافضين للتفرقة العنصرية بين اليهودي الشرقي والغربي، وهو الحزب الذي اشتهر باسم «الفهود السود».

* * *

ثالثاً: تحاول إسرائيل الإبقاء بأي ثمن على بعض المستوطنات اليهودية التقليدية المحافظة في خارج فلسطين، كما تحاول توثيق صلاتها بالرأسمالية حتى تمكن أقطابها من اليهود من البقاء هم أيضاً في أماكنهم في الخارج. وبهذا تضمن ما تسميه «الرأي العام اليهودي العالمي»، وهو تخطيط يكفل استمرار التعاون بين الاستعمار والصهيونية، وبين الرأسمالية الصناعية في الخارج والدولة العميلة القائمة في الوطن العربي للسيطرة على مقدرات الاقتصاد العربي. أما تلك المستوطنات اليهودية التقليدية في روسيا وبولونيا ورومانيا وهنغاريا وغيرها، فإنهم يستعملونها أدوات للضغط والمساومة والدعاية. وهي أيضاً فيما يتخيلونه في المستقبل البعيد تعتبر مستودعات بشرية لصهيونيات مستقبلة لو أن هذه الصهيونية الحالية منيت بكارثة ماحقة.

* * *

رابعاً: فيما يتصل بفلسطين نرى الدولة الصهيونية تنشىء المستعمرات اليهودية الجديدة في الأراضي التي تغتصبها من العرب بعد كل جولة من العدوان، في الجولان، وفي أقاليم نابلس وأريحا وقلقيلية وغيرها من الضفة الغربية للأردن، وحتى في مواضع استراتيجية من شرقي سيناء. والهدف من ذلك أن تكون هذه التجمعات اليهودية وسيلة للمساومة والابتزاز عند التعامل مع العرب. فإمّا أن يرضخ العرب ـ عند تسوية شاملة وسلمية سياسية للمشكلة ـ للوجود اليهوديّ المخيف في عقر دارهم، وإما أن تحدث عملية تبادل للسكان يتم فيها طرد من بقي من العرب في إسرائيل، وسحب أولئك اليهود المستوطنين في الأراضي العربية، حتى تصبح إسرائيل يهودية مائة في المائة، لا يرتفع فيها صوت واحد بأن العرب كانوا هنا في يوم من الأيام.

الدولة الصهيونية تَسنُّ القوانين العنصرية:

ولتيسير تنفيذ هذا المخطط صدرت سلسلة من القوانين الخاصة بالجنسية الإسرائيلية، وتحديد صفة المواطن في الدولة الصهيونية. وأهم هذه القوانين:

١ ـ قانون العودة: الصادر في ٥ يوليو سنة ١٩٥٠. وهو يعطي لكل يهودي في العالم حق الهجرة إلى إسرائيل بلا قيد أو شرط، تمشياً مع ما ورد في صك إعلان قيام إسرائيل بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ الذي تسميه الصهيونية «وثيقة إعلان الاستقلال»، من أن «الدولة الإسرائيلية مفتوحة الأبواب لهجرة اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم».

٢ ـ قانون الجنسية الإسرائيلية: الذي أقره البرلمان الصهيوني (الكنيست) في ١٤ أبريل سنة ١٩٥٢، وأصبح نافذاً ابتداءً من ١٤ يوليه من نفس السنة. وقد اعتبر جميع يهود فلسطين مواطنين دون أية قيود، سوى أن يكون عمر طالب الجنسية ثمانية عشر عاماً، وأن يكون حاصلاً على حق الإقامة الدائمة في فلسطين، وأن يثبت لدى السلطات أنه أقام فيها ثلاث سنين وعرف شيئاً من اللغة العبرية، والجنسية المزدوجة مباحة لمثل هذا اليهودي.

أما الفلسطينيون العرب من سكان البلاد فعلى كل منهم أن يثبت بالوثائق الرسمية أنه كان فلسطيني الجنسية قبل ١٤ مايو سنة ١٩٤٨، تمهيداً للنظر في منحه الجنسية الإسرائيلية. وهناك شروط أخرى إضافية في مقدمتها ثبوت معرفة هذا العربي للغة العبرية، والتحقق من أنه لا يحمل أية جنسية أخرى. وهي عقبات لم تسمح بحق المواطن لغير عدد قليل جداً من عرب فلسطين.

وبعد سنين طالت فيها المساومات بين العرب والصهاينة، وافق هؤلاء على اعتبار عرب فلسطين من ضمن «السكان» المقيمين في بلاد اليهود. أي أنهم مواطنون في أدنى درجة للمواطنة. ونتيجة للعدوان الإسرائيلي المستمر على الأراضي العربية المجاورة، وضم أقاليم واسعة منها إلى السلطة العسكرية الصهيونية، ازداد عدد العرب الواقعين تحت سلطان اليهود. ومن ثم كثر وصفهم ـ حتى في الأوراق الرسمية ـ بكلمة «فلسطيني» لا «إسرائيلي». ويبدو أن ذلك تمهيد للسماح بقيام دولة فلسطينية عربية ضعيفة

يطردون إليها كل من عندهم من العرب. وهكذا تتعدد الضمانات التي تضعها إسرائيل لتحقيق حلم هرتسل الذي سماه «دولة اليهود».

* * *

هذه العنَصرية شرّ مستطير على اليهود:

وهذه العنصرية اليهودية التي تبيَّنا بعض سماتها، تبدو عند الفاحص الحكيم شراً مستطيراً على اليهود أنفسهم. ذلك أنها كما قلنا صلابة في باطل، وتمسك بخرافة، مصدرها عقدة النقص التي أشرنا إليها. ولهذا السبب نجد الصهيوني ليون بولياكوف في كتابه «تاريخ مختصر للاسامية» ـ باريس، يحاول أن يلقي التبعة كلها على غير اليهود من البشر جميعاً، متهماً جميع الأمم بالإجرام في حق اليهود، ومشيراً للمواقف غير الإنسانية التي يسجلها التاريخ ضد اليهود بأنها نتيجة للاسامية. أما عندما تعوزه الحجة فإنه يلجأ إلى الأكاذيب.

ومثال لك ما يذكره حول النص المعروف باسم: «بروتوكولات حكماء صهيون»، إذ يقول (ص ٩١): «على أثر اغتيال القيصر الروسي إسكندر الثاني سنة ١٨٨١ ـ وهو حادث لم يكن اليهود طرفاً فيه على الإطلاق ـ بدأت صورة جديدة من العمل ضد اليهود بشكل مباشر، يحركها ويوجهها رجال الشرطة من وراء ستار، وهي حملات التنكيل المنظم باليهود «البوجروم». وكانت على شكل موجات متتالية يقوم بها الغوغاء في المدن، الواحدة تلو الأخرى، واثقين بأنهم بمأمن من العقوبة. فينهبون المنازل والمتاجر اليهودية، ويقتلون وينتهكون الأعراض. وفي هذا الوقت لم تكن السلطات العامة تتدخل. بل إن «بوليدونوستزيف» وزير القيصر يعلن للدبلوماسيين الأجانب، بمنتهى البرود، أن ثلث اليهود الروس يجب أن يهاجر من البلاد، والثلث الثاني يجب أن يقتل، أما الثلث الأخير فيجب أن يعتنق المسيحية. وفي انتظار تنفيذ هذا الحل للمشكلة اليهودية تقوم السلطات الرسمية بتسميم الجو، إذ يزوِّر البوليس السياسي الروسي «بروتوكولات حكماء صهيون»،

وهي من أشهر النصوص الزائفة في التاريخ أخذت من منشور كتبه «موريس جولي» الفرنسي ضد الامبراطور نابُليون الثالث، ومصدرها تلك الأساطير التي كانت تسري من بلد إلى بلد منذ الحروب الصليبية، وتزعم أن اليهود يتآمرون لتدمير الديانة المسيحية. وقد اهتمت امبراطورة روسيا بالبروتوكولات هي وحاشيتها، وظلت موضع اهتمام شخصيات مرموقة إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، عندما بدأ العالم التقليدي المعروف ينهار، فاستعملها هتلر الاستعمال الذي نعرفه. ومن هذا المثل يبدو واضحاً الطريق المشبوه الملتوي الذي تسلكه الأفكار الرئيسية لمبدأ اللاسامية».

وفي هذه الفقرة نرى بوضوح صارخ كيف يريد المتعصبون العنصريون من دعاة الصهيونية أن يستغلوا حسن نية القراء من الذين لم تتوفر لهم وسائل التحقيق، لكي يطمسوا المعالم بسهولة وسطحية في قضية ضخمة كالبروتوكولات. ومع ذلك فألفاظ المؤلف تفضح أهدافه، وتبين الغباوة الشديدة التي يحاول بها التعمية على هذا المشكل المعقد. فهو يذكر في البداية مصرع القيصر، ويبرىء منه اليهود بعبارة عابرة، مع أن العالم كله يعرف أن الشيوعية الماركسية، في الوقت الذي كانت تعمل فيه في الخفاء لتقويض العرش القيصري، انضم إلى صفوفها عدد كبير من اليهود الروس، لأسباب كثيرة: بعضها معقول كرغبة التغيير في المجتمع اليهودي الذي كان يعاني من الضغط والاضطهاد، وبعضها يرجع إلى الحرص اليهودي التقليدي على اغتنام الفرص، وتحويل الأعمال الإنسانية الضخمة منذ البداية لصالح اليهود وحدهم.

وقد رأوا في الاشتراكية مذهب المستقبل في الاقتصاد والسياسة ونظام الحكم، فأرادوا أن يحتكروه لصالحهم. ثم إن الشيوعية كانت في نظرهم مذهباً من ابتكار مفكّر يهودي الأصل والعنصر هو كارل ماركس، فمالوا إلى تأييده بدافع العاطفة العنصرية. والذي يرجع إلى تاريخ الحزب الشيوعي السري في روسيا قبل ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧، يلاحظ عدد اليهود الذين كانوا

يزحمون الصفوف القيادية فيه، ثم يرى كيف أن الروس بعد قيام الحكم السوفيتي اضطروا إلى سلسلة من عمليات التطهير في حزبهم الحاكم للتخلص من مؤامرات اليهود، التي واكبت نشاط الصهيونية العالمية إذ ذاك وتعاونت معها. فإذا قال هذا المؤلف إن يهود روسيا لم يكونوا طرفاً في الصراع الذي أدَّى إلى اغتيال القيصر، كان ذلك منه مجرد تمويه للواقع التاريخي.

ثم إنه يزعم أن البروتوكولات مسروقة من مقالة لكاتب فرنسي ضد نابليون الثالث. فأين هذه المقالة، وما وجه الشبه بين النصين؟. ولو أن صاحبنا كان المتحدث الوحيد عن البروتوكولات وقال هذا الكلام لأمكن أن يجوز على البسطاء. ولكن كثيرين من أقطاب الصهيونية قد خاضوا في البروتوكولات، نذكر منهم موريس ليبر وأدمون فليج. وكلهم يختلفون في الأقوال والأدلة والوقائع على نحو يدل بكل بساطة ووضوح على كذب غير منسق ولا منظم.

التراث اليهودي ينضح بالتعصب العنصري:

ومع ذلك فالتراث اليهودي الموثق في التلمود والمدراش يوصي بألوان من التعصب اليهودي ضد أمم العالم تفوق ما جاء في البروتوكولات. من ذلك أنهم يحرمون أن ترضع المرأة الإسرائيلية طفلاً من غير اليهود حتى وإن تعرض للموت من الحرمان من الغذاء. وتنصح بعض هذه التعاليم الطبيب اليهودي بألاّ يعالج مريضاً من الأمم الأخرى، بل تحرم على اليهودي كائناً من كان أن يصدق في النصيحة لوجه الله لرجل غير يهودي، أو أن يعيد إلى غير اليهودي شيئاً فقد منه. بل جاء في التلمود (باب عيد الفصح: ٢/٤٩): «أن أحد أحبارهم الكبار وهو الربِّي اليعازار قال لتلاميذه إنه إذا جاء عيد الغفران (يوم كپور) في يوم سبت فإنه يباح في ذلك اليوم تهشيم رؤوس أبناء الأمم الأخرى لقتلهم. فقال له تلاميذه: يا مولانا، قل بالأحرى إنه يباح ذبحهم. فقال: لا،

لأن ذبحهم سيكلفنا أن نقرأ صلاة معينة». والواقع أن الحديث يطول بنا لو تعقبنا كل التصرفات الشاذة الوحشية، والتأويلات الخرافية المتخلفة التي يتضمنها هذا الأدب اليهودي التلمودي.

* * *

العنصرية اليهودية هي التي أوجدت اللاسامية:

فإذا كان اليهود يطيلون في الشكوى من اللاسامية، فإنهم هم مخترعو الحقد على الأمم الأخرى، مما عرضهم لتلك النتيجة الطبيعية من جانب تلك الأمم. ويلخص الدكتور إبراهيم الحاردلو هذه الفكرة في بحث بعنوان «الصهيونية وعداء السامية» في فصل عقده عن مسؤولية الصهيونية في وجود اللاسامية بقوله: (إن ظاهرة اللاسامية نوع من الاحتجاج والثورة على فئة خاصة، وضرب من التعبير عن عدم الرضا. فما هي الأسباب التي أدت إلى هذه الثورة؟ هذا سؤال لم يطرحه أحد من الكتاب الغربيين فيما نعلم. إنهم يحاولون أن يبرهنوا ما لا يحتاج إلى برهان. يتحدثون عن النازية، وما فعلت باليهود جريمة إثر جريمة. ولكنهم لا يذهبون إلى أبعد من هذا، سوى تلك التفسيرات التي قصد بها كسب عطف الناس نحو اليهود، وتخويفهم من اللاسامية.

فينبغي أن نسأل: هل ظاهرة اللاسامية ظاهرة مرضية في جسم الإنسان الأممي (جوى) كما يدّعي الصهاينة؟ أم هي ظاهرة كغيرها من الظواهر السياسية ذات الأسباب الموضوعية العارضة، والتي سوف تزول بزوال تلك الأسباب؟.

كان العداء بين اليهود والعالم المسيحي عداءً دينياً بحتاً منذ القرن الأول الميلادي، ولكن في أواخر القرن الثامن عشر، ونتيجة للنزعة التحررية التي اجتاحت العالم الغربي منذ الثورة الفرنسية وما بعدها، ضعفت الناحية الدينية في أوربا، واهتم الناس بالعلم الحديث، وتعلقوا به. ولذا نجد اليهود أنفسهم قد أصابهم رشاش من موجة التحرر تلك، فنالوا حقوقهم كمواطنين

في القرن التاسع عشر، نتيجة لهذا التحرر.

ففي هولندا نال اليهود حقوق المواطن سنة ١٧٩٦ م.
وفي فرنسا سنة ١٨٣٠ م.
وفي الدانمارك سنة ١٨٤٩ م.
وفي إنجلترا سنة ١٨٥٨ م.
وفي النمسا سنة ١٨٦٧ م.
وفي إيطاليا سنة ١٨٧٠ م.
وفي ألمانيا سنة ١٨٧١ م.
وفي سويسرا سنة ١٨٧٤ م.
وفي البلقان سنة ١٨٧٨ م.
وفي إسبانيا سنة ١٨٧٦ م.
وفي روسيا بعد ثورة أكتوبر سنة ١٩١٧ م.

مفكرو الصهاينة يغذون بكتاباتهم العنصرية ويشجعون اللاسامية:

إن الصهيونية مسؤولة عن بعث اللاسامية في الدول الأوربية، لأنها كانت تدعو اليهود إلى العزلة التامة عن الأمم، بعد أن أخذوا في الاندماج في تلك الأمم.

بدأ «موسى هس» يكتب عن الأفكار الصهيونية منذ عام ١٨٤٠ م، وتوج كتاباته بأن أصدرها في كتابه «روما وأورشليم» ١٨٦٢ م، الذي بشر فيه بتميّز اليهود كعنصر، وتفوّقهم على الناس. وذلك هو نفس الوقت الذي ظهرت فيه الكتب في فرنسا تدعو إلى فكرة تمييز الشعوب الآرية.

وصدر كتاب «ليو بنسكر» من أكبر مفكري الحركة الصهيونية، سنة ١٨٨٢ م، «التحرر الذاتي» يدعو اليهود إلى القومية، ويحارب حركة الانصهار، والاختلاط بالشعوب الأخرى.

إن أكثر الكتب التي صدرت تدعو إلى اللاسامية، إما أن تكون مواكبة

لهذه الكتب التي تدعو للصهيونية، أو متأخرة عنها بزمن طويل:

فمن أشهر الكتب التي صدرت عن اللاسامية كتاب «انتصار اليهود على الألمان» لمؤلفه «ڤلهلم مار» سنة ١٨٧٠ م. وكتاب «فرنسا اليهودية» لمؤلفه «دريمون» الكاتب الفرنسي عام ١٨٨٦ م، وقبله بخمس سنوات كتاب «ضد اليهود» ألّفه «دورنج» سنة ١٨٨١ م، وكتاب «أساس القرن التاسع عشر» لمؤلفه «تشمبرلين» سنة ١٨٩٩ م.

فنجد تاريخياً أن الصهيونية سابقة لكل هذا النشاط ضد اليهود. وأن حادثة الضابط اليهودي دريفوس الذي اتهمته فرنسا بالخيانة والتجسس لحساب ألمانيا، سنة ١٨٩٤، ليست السبب المباشر للحركة الصهيونية، كما يصوّرها أكثر الكتاب الغربيين. بل إن الحركة الصهيونية كانت تعمل في دأب قبل تلك الحادثة بنحو نصف قرن. وكان هرتسل في فرنسا يعد لأول مؤتمر صهيوني عقد في بال بسويسرا عام ١٨٩٧ م، منذ فترة قبل تلك الحادثة. ولم يكن المؤتمر نتيجة هذه الحادثة العارضة، وإن الجمعيات الصهيونية قد أخذت تتكون قبل ذلك بزمن طويل. وقد تكوّن «الاتحاد العالمي لليهود» في باريس عام ١٨٦٠ م.

تقول الكاتبة اليهودية «حنة آرندت»: (في فرنسا كما في كل الدول الأوربية حيث نال اليهود التحرر، أصبح اليهود في مدة مائة وخمسين عاماً على صلة متينة بأموال الدولة. وفي القرن الثامن عشر أخذ شكل الإعانات المباشرة والإمدادات الحربية من المموِّلين اليهود). ثم تستطرد فتقول: (وحين أُبرمت اتفاقية سنة ١٨٧١ م، كان يتولى الجوانب المالية في الاتفاقية أصحاب البنوك اليهودية، من كلا الجانبين فرنسا وألمانيا). أضف إلى ذلك التنافس الذي كان قائماً بين الشركة اليهودية «روتشيلد» والشركة الفرنسية «الاتحاد الكاثوليكي العام» التي أفلستها شركة روتشيلد، وحاربتها حتى النهاية. تلك هي الأسباب التي أدت إلى ظهور اللاسامية، إذ أنها لا يمكن أن تنشأ في فراغ، أو لأنها شيء مركب في طبع البشر كله غير اليهود.

كان كثير من الناس، ومنهم الأستاذ باركس، يعتقدون أن اللاسامية سوف تنتهي بانتهاء النازية وهزيمتها، وكان ينبغي أن يحدث هذا. ولكن الصهيونية أرادت للاسامية أن تستمر، وأبقت عليها بكل الوسائل. ورجع الأستاذ عن رأيه في اختفاء اللاسامية، وأخذ يردد منذ سنة ١٩٤٦ م، أن اللاسامية باقية ما بقي اليهود على هذه الأرض.

قال ناحوم جولدمان، رئيس المؤتمر العالمي للصهيونية، في مؤتمر عقد في جنيف عام ١٩٥٨ م، فيما نشرته صحيفة النيويورك تايمز، تقول: (قائد يهودي ـ جولدمان ـ يحذر اليوم من أن اضمحلال اللاسامية ربما يشكل خطراً على وجود اليهود. إن اختفاء اللاسامية في معناها التقليدي، بالرغم من أنه مفيد للوضع السياسي والمادي بالنسبة للجماعات اليهودية، إلّا أنه أتى بنتائج سلبية في حياتنا الداخلية). «الدكتور إبراهيم الحاردلوا: «الصهيونية وعداء السامية» ١٩٧٠ م ـ ص: ٢٢ ـ ٢٤).

* * *

خاتمة

وبعد: فإن التقدم الإنساني لا يمكن أن يطرد إلاّ بتعاون البشر جميعاً. وقد كان ميثاق هيئة الأمم المتحدة بتجنيب العالم ويلات الحروب، والعمل الجاد الدائب على إقرار السلام، ومحاولة الوصول بثمرات الثقافة الإنسانية والرفاهية التي ابتكرها العقل البشري إلى كافة المجتمعات في جميع أنحاء العالم، كل ذلك كان بُشرى، وكان حلماً أحسّ الناس في جميع أنحاء الأرض أنه وشيك الوقوع.

لكن استغلّت الصهيونية هذه الموجة من التفاؤل الدولي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية، وقدمت نفسها على أنها المتحدث الرسمي والوحيد عن يهود العالم أجمع، لا عن أولئك الذين يعيشون معنا في هذه الحياة، ولكن على وجه الخصوص عن الموتى. نعم، إنها تقدمت إلى هيئة الأمم المتحدة بدعوات ضد النازية، وطالبت ألمانيا المنهزمة في تلك الحرب بأموال خيالية تعويضاً عن الذين قتلتهم النازية من اليهود.

وفي غمرة هذا التغيير الشامل في وجه العالم بعد انتهاء أكبر كارثة عرفها البشر حتى الآن في تلك الحرب العالمية الثانية، أعلنت دولة إسرائيل، وصفق الناس وهللوا وكبروا حتى غطت أصواتهم أصوات القتلى والجرحى والمشردين من عرب فلسطين.

هكذا أعلنت دولة إسرائيل في ١٥ مايو عام ١٩٤٨، ولم يتنبّه العالم

في هذا الوقت إلى أشياء كان قد تعهد بها من أجل السلام، ومنها حق الأمم في تقرير مصيرها، وحق المواطن في أرضه وتراب وطنه، وحق الحضارات الممتازة في البقاء في المواطن التي ترعرعت فيها.

كانت الأهواء قد بدأت في داخل الأمم المتحدة تباعد بين الكتلتين الاشتراكية والرأسمالية. ودخل السمسار الصهيوني بين الطرفين، وقال لكل طرف كلاماً مخالفاً لما قاله للآخر، قال للأمريكان ومن يجول في فلكهم من دول الغرب: إنه الحارس الأمين على مصالح الاستعمار في المنطقة العربية. وقال للعالم الشيوعي: إنه محرك المجتمعات، ومهندس الانقلابات، والمتصرف في الأموال، والمتحكم في التجارة العالمية، وإنه بوجوده في المنطقة سوف يهزها من الأساس، بحيث تنفض نير الاستعمار والإقطاعية وتدخل في المعسكر الشرقي أفواجاً. أما أصحابه وأعوانه فقد قال لهم قولاً ثالثاً يختلف عن ذلك كله، قال لهم: إن الأرض لنا من الجولان إلى سيناء ومن الأردن إلى البحر الأبيض في انتظار أن ندفع بحدودها من النيل إلى الفرات. وقال لهم: إن إرهاب العرب هو خير وسيلة لاغتصاب ما نريده منهم، فقامت مذابح يافا ودير ياسين وكفر قاسم وغزة وغيرها.

وخرج العرب العزل من وطنهم فلسطين ليعيشوا لاجئين من حوله. وتوالت الجولات العسكرية والسياسية والاقتصادية تفتح بالخنجر اليهودي جروحاً دامية في جسم الأمة العربية، واشتغل تجار الحرب من اليهود بصرف أنظار القوى الكبرى عن الكارثة الضخمة التي تتحفز بهذه المنطقة الخطيرة على مرّ التاريخ، منطقة الشرق الأوسط. فهنا مشكلة كوريا أو فيتنام أو الصين وفورموزا أو باكستان والهند أو كوبا، وما لا يحصى من مراكز التوتر التي لعبت فيها السياسة اليهودية دوراً خبيثاً جداً لتصرف الأنظار عن عربدتها في فلسطين والعالم العربي كله.

وإذا كان اليهود يتقنون البكاء عند الهزيمة، والاستجداء عند البؤس، فإنهم يقعون في أخطاء شنيعة مضحكة عندما يتصرفون من مكان المنتصر، أو

يتحدثون بلغة المستغني. ولذلك لم تكن هزائم العرب أمامهم كلها في صالحهم، بل استفاد العرب منها سياسياً، فتخلصت أقطار عربية كثيرة من الجمود والتخلف والاستبداد والاستعمار. كذلك أحس العرب من خلال هذه الجولات بضرورة الحفاظ على اقتصادهم سليماً، وبالسعي في حراسة ذلك بالإكثار من التعليم وتخريج الخبراء والعلماء في شتى نواحي النشاط الإنساني. وأجمعوا على ضرورة الوحدة في وجه العدو المشترك.

وأحسّ أقطاب الصهيونية بأن عصرهم الذهبيّ موشك على الزوال، فراحوا يفكرون في حلول ناجعة وعاجلة، وكان تخطيطهم الأول القضاء على القوة الفلسطينية الناشئة الواعية لواجبها القومي والوطني. وبدأوا في داخل إسرائيل بتنظيم عمليات من الضغط والإرهاب والإفقار والتشكيك والتفكيك في داخل المجتمع العربي الباقي في الأرض المحتلة. ثم حركوا الفتن بين العرب بعضهم وبعض وجعلوا ثمن ذلك في أحيان كثيرة قضية فلسطين، بإيقاظ النعرات الإقليمية والطائفية. حركوا أكراد العراق، ثم أثاروا عاصفة هوجاء بين الأردن والنضال الفلسطيني، وأخيراً نقلوا العملية الدموية الرهيبة إلى لبنان، وما تزال الأيدي العربية هناك يقتل بعضها بعضاً بالسلاح الإسرائيلي، أو بسلاح باركته إسرائيل.

كل ذلك يحدث، ولكن العالم لا ينام نوماً كاملاً. إذ تفاجأ إسرائيل وسط هذه العربدة بقرار من هيئة الأمم المتحدة يصنفها دولة عنصرية تعصبية خارجة على المبادىء الإنسانية وعلى ميثاق المنظمة الدولية.

وتصنَّع اليهود في البداية الوقار وعدم الاكتراث. ولكنهم بسرعة ترنحوا وأذهلتهم المصيبة، فقام ناحوم جولدمان في تلك الأثناء بتوجيه توصية إلى المنظمات الصهيونية في العالم بالعمل على تحريك النعرات العنصرية والطائفية حيثما أمكن ذلك، لأنه حسب زعمه يجب ربط الطائفية والعنصرية اليهودية بحركة عامة وعالمية لها هذا اللون حتى تكسب الصهيونية وقتاً وتحصِّن وجودها.

وكان رد بعض الأمم العربية على ذلك رداً سياسياً حكيماً، عندما أعلنوا أنهم لم يطردوا المواطنين اليهود من أراضيهم، وأن من أراد ترك إسرائيل من أولئك اليهود والعودة إلى وطنه العربي فهو حر في ذلك. وعاد بعض اليهود إلى بلاد العروبة مفضلين ذلك على العبودية تحت نير الصهيونية.

والموقف كما نرى دقيق، ولن يقر للسلام قرار في هذه المنطقة حتى تزول طبقة الكهنة الصهاينة من فلسطين، ويتعوّد اليهودي الموجود هناك أن يعيش في وحدة وطنية وفي سلام وحسن جوار مع العربي صاحب هذا الوطن، والأمر وإن كان يبدو بعيداً فإنه ليس بالمستحيل.

إن الصهيونية منذ حركة أحبّاء صهيون إلى الآن قطعت أكثر من مائة سنة في تحقيق تدابيرها، وعلى العرب أن يأخذوا الأمر بالأناة، وأن يعقدوا العزم على إزالة هذه النعرة العنصرية بحيث يبقى من بقي من اليهود عنصراً بشرياً في المنطقة إلى جانب العناصر الكثيرة المكونة لما نسمِّيه اليوم الشعوب العربية.

الفهـــرس